

موسوعة

تاريخ الأقباط

الجزء الرابع

تأليف

زكي شنودة

المحامي

الطبعة الأولى

١٩٦٦

موسوعة

تاريخ الأقباط

الجزء الرابع

تأليف

زكي شنوده

المحامي

الطبعة الأولى

١٩٦٦



السيد الرئيس جمال عبد الناصر



ديوان كبير الأمناء

٢٢٤٢

السيد زكى شنودة

مدير الشئون القانونية والادارية بمنظمة

تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية

أتشرف بابلاغ سيادتكم أنى رفعت الى السيد رئيس الجمهورية الجزء الثالث من مؤلفكم " تاريخ الاقباط "

وسرنى ابلاغكم شكر السيد الرئيس مع أطيب تمنياته .

وتفضلوا سيادتكم بقبول وافر الاحترام .

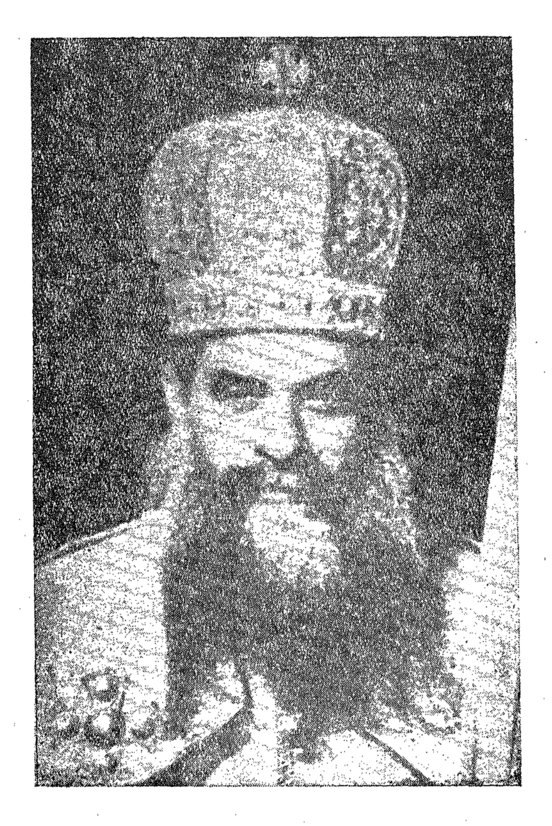
كبير الأمناء

تحريرا فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٦٦

إهداء

إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر
شاكراً لسيادته عطفه وتقديره الكريمين
وراجياً من الله أن يسدد خطاه
في خدمة أمته واستعادة مجدها
في ظل الحرية والمساواة والعدل

المؤلف



غبطة البابا كيرلس السادس

مخصوص ١

القاهرة في ٢٦ برمهات سنة ١٦٨٢
٤ ابريل سنة ١٩٦٦

قلم

عدد المرفقات

عند الرد الرجا ذكر هذا الرقم

السيد وزير التموين

تحية طيبة مع صادق الدعاء .

نرجو التكرم بالاحاطة بأن الاستاذ زكي شنوده المحامي يقوم بتأليف وطبع موسوعة عن تاريخ الاقباط وقد صدر منها الجزء الاول والثاني

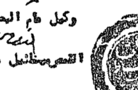
ولما كان الجزء الاول قد نفد ونريد اعادة طبعه ، كما انه نريد طبع الجزء الثالث والرابع .

فنرجو صدور امر سيادتكم بالتصريح باستلام ٢٥٠ مائتين وخمسين رزمة ورق ساداته لتمكينه من طبع الاجزاء الثلاثة علما بانه سيطبع ٥٠٠٠ خمسة الاف من كل جزء .

ولما كانت البطريركية يهمها طبع هذه الكتب فنأمل أن يحوز هذا الطلب اهتمام سيادتكم .

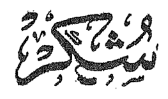
وتفضلوا بقبول فائق صلواتنا وعظيم تقديرنا ،،

وكيل عام البطريركية



القمص ميخائيل عبد المسيح

« صورة الخطاب الذى تفضل حضرة صاحب الغبطة البابا كيرلس السادس فطلب الى حضرة الأب الورع وكيل عام البطريركية ارساله الى السيد وزير التموين لصرف الورق اللازم لطبع هذا الكتاب »



أتقدم الى حضرة صاحب الغبطة البـــابا كيرلس السادس بطـبـريرك الاسكندرية ورأس الكنيسة القبطية ، بواجب الشـــكر على ما غمرنى به من عطف أبوى ومن رعاية دائمة ٠ وقد كان لغبطته أكبر الفضل في ظهور هـــذا الكتاب ، اذ عاوننى لدى السيد وزير التموين فى الحصول على الورق اللازم لطبعه ٠ واننى لأرجو من الله أن يحفظه راعيا لأبنائه وكنيسته ٠

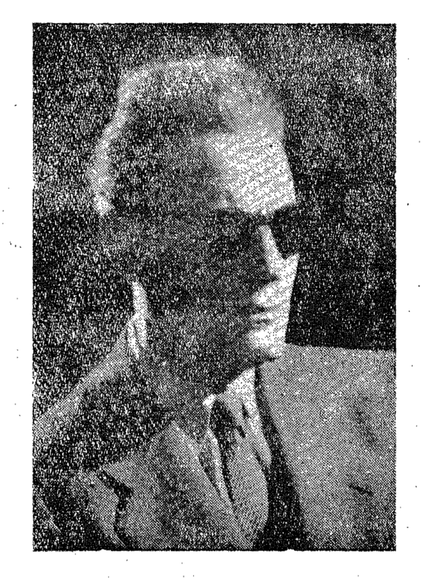
كما أتقدم بالشكر الى الأب الجليل القمص ميخائيل عبد المسيح وكيل عام البطريركية ، والى الأب الجليل القمص أقلاديوس الأنطونى والأســتاذ يوسف جرجس والأستاذ روفائيل صبحى ، سكرتيرى غبطة البابا على فضلهم الذى أرجو من الله أن يجزيهم عليه خير الجزاء ، وأن يديم نعمته عليهم ٠

واننى لأتقدم بالشكر الجزيل الى عميد الأدب العربى أستاذنا الجليــل الدكتور طه حسين اذ غمرنى بتقديره الكريم الذى أعتز به كل الاعتزاز وأرجو من الله أن يطيل فى عمره ويمتعه بالصحة والسعادة ٠

وأتقدم بالشكر الجزيل الى السيد الأستاذ الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة والمؤرخ المعروف ، اذ بذل معى مجهودا كبيرا فى مراجعة هذا الجزء من موسوعة تاريخ الأقباط وتفضل بكتابة تقديم له ٠

وأخيرا لا يسعنى الا أن أزجى الشكر الى كل من عاوننى فى طبع هـــذا الكتاب ، راجيا من الله أن يمنحنى القدرة عــلى رد بعض جميلهم وأن يجعلنى عند حسن ظنهم والله ولى التوفيق ٠

زكى شنوده



الأستاذ الدكتور طـــه حسين

سيدي الأستاذ الكريم

أرجو أن تتفضل فتقبل أصدق تحياتي وأحمد شكري
لما تفضلت فأهديت إلي من أجزاء كتابك من تاريخ الأقباط
وهو كتاب كالذي ما قرأت من الكتب فقد قرأته مستمتعا
بجزئه إلى أقصى غايات الاستمتاع
فأنت لم تفصل تاريخ الأقباط وحدهم وإنما تناولت
موضوعات أخرى مدهشة أن تكون تاريخا لنشأة المسيحية
من مسائل ولم تكتف بذلك بل اهتمت بتاريخ الحياة المصرية القديمة.
وما أشك في أن الجزء الذي لم يصدر بعد سيتم تاريخ
المسيحية والمسيحيين في بلاد إلى هذه الأيام.
فلك أجزل الشكر وأصدق الشكر على هذا الجهد القوي الخصب
الذي بذلته وعلى ما أنفقت فيه من وقت.
وأنا واثق كل الثقة بأن كل قارئ منصف سيعرف لك
هذا الجهد الخصب وهذه النتيجة الرائعة التي وصلت إليها
فتفضل بتحية مجددة وشكري الخالص

٢ مارس
١٩٦٣

« صورة خطاب الأستاذ الدكتور طه حسين الى المؤلف »



سيدى الأستاذ الكريم

أرجو أن تتفضل فتقبل أصدق تحياتى وأعمق شكرى لما تفضلت فأهديت الى من أجزاء كتابك فى « تاريخ الأقباط » ٠

وهو كتاب كأقوم ما قرأت من الكتب ٠ فقد قرأته مستمتعا بقراءته الى أقصى غايات الاستمتاع ٠

فأنت لم تفصل تاريخ الأقباط وحدهم ، ولكنك تناولت موضوعات أخرى توشك أن تكون تاريخا لنشأة المسيحية فى جملتها ٠ ولم تكتف بذلك بل ألممت بتاريخ الحياة المصرية القديمة ٠ وما أشك فى أن الجزء الذى لم يصدر بعد سيتم تاريخ المسيحية والمسيحيين فى مصر الى هذه الأيام ٠

فلك الشكر أجمل الشكر على هذا الجهد القوى الخصب الذى بذلته وعلى ما أنفقت فيه من وقت ٠

وأنا واثق كل الثقة بأن كل قارىء منصف سيعرف لك هذا الجهد الخصب وهذه النتيجة الرائعة التى وصلت اليها ٠

فتقبل تحيتى مجددة وشكرى متصلا ٠

٣ مارس سنة ١٩٦٧

طه حسين

تقديم

للدكتور مراد كامل

أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة
ووكيل المعهد العالى للدراسات القبطيــة
ونائب رئيس جمعية الآثار القبطية

ان الذين يعيشون الآن فى مصر ، فى مرحلة انطلاق ، يحاولون التعرف على كنه الأشياء ، ويمدون أبصارهم نحو آفاق أوسع ، انما يشعرون بالقيم التاريخية التى خلفها ذلك الشعب المتحضر الذى عاش على ضفاف النيل .

ان التاريخ نشأ بمعناه الحقيقى عند سكان وادى النيل . ولا شك فى أن المقومات الأولى للحضارة الأوروبية ــ سواء فى بلاد اليونان أو ايطاليا ــ قد قامت على أسس الحضارة المصرية القديمة .

ليس هناك أمة واحدة من أمم العالم تستطيع أن تنافس مصر فى ترابط عصور تاريخها . فنحن نستطيع أن نتتبع تطور الأحداث التاريخية والتدرج الحضارى لها طوال أربعين قرنا دون أن تنقطع بين أيدينا حلقات السلسلة التى تبدأ منذ العصور المبكرة وتتدرج على مر السنين ، تارة تزدهر ، وتارة أخرى تخبو ، وتنتهى فى آخر الأمر بخاتمة مرة ، خاتمة فرضها عليه الفرس

حين دخل قمبيز أرض مصر وسلب أهلها استقلالهم عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، واضطرتهم الظروف أن يعيشوا تحكمهم شعوب أجنبية حتى عصرنا الحديث ، وكانت هذه خاتمة شعب مكافح عاش قرونا طويلة ، أدى فيها واجبه كاملا كشعب حر مستقل ، عمل على تقدم العلم ، وهيأ لنفسه سبل الحضارة ·

وظل الشعب المصرى ينوء تحت نير الاستعمار والاستغلال والظلم ، حتى قام نفر من أبناء مصر عام ١٩٥٢ وأعادوا اليها استقلالها وكرامتها ، وقضوا على الاستعمار وأبعدوه عن بلادهم ، وأخذوا فى نشر العدالة بين الناس ، وأشركوهم فى كل صغيرة وكبيرة مما يجرى فى بلادهم ، وأعادوا للعلم مركزه ، وهيأوا للحضارة أسباب انتشارها ، بطريقة تجعل المساواة بين الناس وازالة الفوارق بين الطبقات هى أساس الحياة الصالحة بين المواطنين ·

ان اعتراف الناس بأهمية التاريخ وبعظمة الحضارة المصرية ، تجعلنا نتوجه الى دراسة التاريخ المصرى القديم · فهل يستطيع أحد أن يغض النظر عن أهرام مصر وعن آثارها المختلفة القائمة فيها ، وعن مختلف التحف الرائعة التى تملأ متاحف العالم ؟ هل يستطيع أحد أن يتخيل وجود جيل من الناس ينظر نظرة عابرة الى الأهرام فى غير دهشة ، وبلا اعجاب ، أو يعتبره كتلا من الأحجار لا نفع فيها ؟

وقد عرض الأستاذ زكى شنوده فى هذا الجزء الرابع من موسوعة «تاريخ الأقباط» لدراسة التاريخ المصرى القديم ، وقسمه الى ثلاثة أقسام : الدولة القديمة من الأسرة الأولى الى العاشرة ، والدولة الوسطى من الأسرة الحادية عشرة الى الأسرة السابعة عشرة ، والدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة الى الأسرة الثلاثين ، واعتبر كلا من هذه الدول وحدة لها مظاهرها الحضارية ونظمها السياسية والادارية والاجتماعية وعقائدها الدينية وحياتها الثقافية والاقتصادية وفنونها وعلومها · ولم يأخذ الأستاذ زكى شنوده بالتقسيم

الحديث الذى يقسم عصور التاريخ المصرى الى : الدولة القديمة وتشمل الأسرات من الأولى الى الثامنة ، ويقسمه بدوره الى العصر الباكر ويشمل الأسرتين الأولى والثانية ، وعصر بناة الأهرام ويشمل الأسرات من الثالثة الى الثامنة ، ثم عصر الاضمحلال الأول ويشمل الأسرتين التاسعة والعاشرة . والدولة الوسطى وتشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة ،ثم عصر الاضمحلال الثانى ويشمل الأسرات من الثالثة عشرة الى السادسة عشرة ، فعصر الكهسوس ويشمل الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة . والدولة الحديثة وتشمل الأسرات من السابعة عشرة الى الرابعة والعشرين ، ثم العصر المتأخر وينقسم الى فترات ثلاث : فترة حكم الأثيوبيين (الأسرة الخامسة والعشرون) ، والعصر الصائى (الأسرة السادسة والعشرون) وهو نهاية تاريخ مصر الفرعونية ، ثم فترة حكم الفرس (الأسرات من السابعة والعشرين الى الثلاثين) .

وعلى هذا فقد فضل الأستاذ زكى شنوده أن يتبع الطريقة التقليدية فى دراسة تاريخ مصر ، وله عذره فى ذلك ، فهى أوضح فى العرض ، وفيها يسر على القارىء .

أما دراسته لتاريخ قدماء المصريين ضمن تاريخ الأقباط ، فهو رجوع بكلمة أقباط الى مدلولها الأصلى : فقد كانت مصر تعرف قديما عند شعوب البلاد السامية المجاورة لها باسم مصر ، فهى مصر فى الأشورية ومصرين فى الآرامية ومصرايم فى العبرية ، كما عرفها العرب باسم مصر . أما كلمة قبط فهى تسمية قديمة لمدينة منف عاصمة مصر ، وكانت تسمى «هاكابتاح» أى منزل روح الاله بتاح . وقد عرفها الأشوريون أيضا بهذا الاسم . وقد سمى العالم الخارجى مصر باسم عاصمتها منف من سبيل اطلاق اسم العاصمة على القطر كله ، كما تعودنا أن نسمى المديرية باسم عاصمتها ، وقد سمع اليونان منذ عصور قديمة هذه التسمية فأخذوها كما سمعوها وأضافوا اليها

علامة الرفع فى اليونانية وأسموها « ايجيبتوس » ، وقد ورد هذا الأسم عدة مرات فى شعر هوميروس ، فاذا حذفنا من هذه الصيغة اليونانية علامة الرفع « وس » ، والحركة فى مطلع الكلمة التى ظنها العرب حرف استهلال ، خلص لنا بعد ذلك اسم « قبط » أى مصر ، وقد أسماها العرب عنـــد الفتح أيضا « دار القبط » •

وعلى هذا يكون الأستاذ زكى شنوده على حق أن يجعل التاريخ المصرى القديم جزءا من « تاريخ الأقباط » ، فالأقباط هو اسم الشعب المصرى منـــذ أن كانت عاصمته منف الى اليوم •

مراد كامل



رأينا فى التمهيد للجزء الثالث من هذه الموسوعة أن الأقباط هم سلالة قدماء المصريين ، وأن تاريخ الأقباط ينبغى لذلك أن يبدأ ، لا منـذ اعتناق المصريين للمسيحية فحسب ، وانما منذ نشأتهم الأولى قبل ظهور المسيحية بآلاف السنين ، لأن فى تلك الحقبة القديمة من الزمان برزت خصائص تلك الأمة وتميزت عن غيرها من الأمم والشعوب ، حتى اذا اعتنقت المسيحية بعد ذلك اجتمعت لها صفات العراقة فى الأصل ، والصلابة فى الايمان ، فجمعت بين فخرها بالماضي المجيد ، وفخرها بالمسيح المصلوب •

وقد كان السر فى عظمة ايمان المصريين بالمسيحية هو عظمة عنصرهم ، وكان السر فى عمق ذلك الايمان هو عمق كيانهم ، وصدق وجدانهم ، وصفاء جوهرهم • فلولا أمجاد الآباء ، ما كان جهاد الأبناء • ولولا ماضى الأقباط ، ما كان حاضرهم ، وما كان صبرهم ولا صمودهم ولا اصرارهم على البقاء رغم كل ما صادفهم من عاديات الزمن وعوامل الفناء •

لذلك اعتزمنا أن نستعرض تاريخ قدماء المصريين ، كتمهيد لا بد منه لتاريخ الأقباط ، ولأنه الأساس الذى قام عليه ذلك التاريخ ، واستمد منه أصوله العريقة وأسبابه العميقة ، واستند اليه فى ارتفاع بنيانه ، واتساع كيانه ، ورسوخ أركانه ، وشموخ مكانته بين تواريخ الشعوب • وقد أخذنا على عاتقنا ــ من أجل ذلك كله ــ أن نشرح تاريخ قدماء المصريين ــ قبل أن نشرع في تدوين تاريخ الأقباط ــ بكل ما فى طاقتنا ، وبقدر ما يسمح به

حجم هذه الموسوعة من تفصيل وتحليل وتفسير لكل نواحيه وجنباته ، وكل ظروفه وملابساته ، معتبرين ذلك شرحا وتوضيحا لتاريخ الأقباط ذاته ٠

وبناء على هذه الخطة بدأنا فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة دراستنا لتاريخ قدماء المصريين ، فرأينا كيف نشأوا فى وادى النيل منذ أكثر من مائة ألف عام ، وكيف كان ذلك الوادى فى تلك الحقبة السحيقة من الزمان هضبة كثيرة المرتفعات والمنخفضات ، تكسوها مساحات شاسعة من الغابات الكثيفة الأشجار ، وتنهمر عليها سيول لا تنقطع من الأمطار ، وقد شق النيل مجراه خلال فجواتها الطبيعية مندفعا فى خط متعرج من الجنوب الى الشمال ، ورأينا كيف كان المصريون الأوائل يعيشون فى هذه الهضبة معتمدين على الصيد ، وقد اتخذوا أدواتهم وأسلحتهم من الحجر ، ولذلك اصطلحنا على تسمية عصرهم بالعصر الحجرى ٠ بيد أن الأحوال المناخية لم تلبث أن تغيرت مع مرور الزمن ، فلم يفتأ المطر يقل والجفاف يزحف على الأرض حتى تعذر على المصريين البقاء فى أعالى الهضبة ، فنزلوا الى ضفاف النيل الذى أصبح المورد الوحيد للماء ، واضطروا ـ بعد أن انقطع الصيد ـ الى زراعة الأرض ، ومن ثم أخلدوا ـ بعد حياة الترحال والتجوال ـ الى حياة الدعة والاستقرار ، وبدأوا يبنون المسكن ، ويؤلفون الأسرة ، فكانت هى النواة الأولى للمجتمع ٠ ثم لم يلبثوا أن اكتشفوا معدن النحاس واستخدموه فى صنع حاجياتهم ، فانتهى بذلك العصر الحجرى وبدأ العصر المسمى بعصر النحاس قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف وخمسمائة عام ، وهو الذى يسميه بعض العلماء عصر ماقبل التاريخ ٠ حتى اذا ازدادت الحاجة الى الترابط والتعاون بين المصريين ، رأينا كيف تقاربوا وتجاوروا فى السكن فنشأت القرية ، وكانت هى بداية الطريق الى قيام مجتمع متكافل وسلطة منظمة ٠ ثم ازداد حجم القرى فى بعض الجهات فظهرت المدن ٠ ثم اقتضت الضرورات الاجتماعية بعد ذلك انضمام عدد من القرى والمدن فظهرت المقاطعات فى شمال الوادى وجنوبه ٠ ثم بمرور الزمن

قامت حركة إتحاد بين مقاطعات الشمال فنشأت دولة الوجه البحرى • كما قامت حركة اتحاد بين مقاطعات الجنوب فنشأت دولة الوجه القبلى • ثم لم تلبث دولة الوجه البحرى أن نجحت فى ضم دولة الوجه القبلى اليها فقامت بذلك أول دولة متحدة شملت مصر كلها ، وكانت عاصمتها مدينة « أون » فى مكان « عين شمس » الحالية ، وقد تم ذلك حوالى عام ٤٢٤٢ قبل الميلاد • الا أن هذا الاتحاد لم يدم طويلا ، فلم تلبث مصر أن انقسمت مرة أخرى الى دولتين احداهما فى الوجه البحرى والأخرى فى الوجه القبلى ، وظلت كذلك حتى استطاع أحد ملوك الوجه القبلى وهو الملك مينا أن يضم الدولتين مرة أخرى فى دولة واحدة حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وأصبح أول حاكم يحمل لقب ملك الوجهين البحرى والقبلى ، وقد أسس أول أسرة حاكمة فى تاريخ مصر ، بل فى تاريخ العالم كله • وتعتبر بداية عهد الملك مينا هى بداية التاريخ المصرى القديم •

وقد رأينا ــ قبل أن نمضى فى سرد تاريخ قدماء المصريين فى عصورهم التاريخية ــ أن نستعرض مظاهر حضارتهم على العموم ، ليكون ذلك أساسا لدراسة هذه المظاهر بعد ذلك بشىء من التفصيل فى كل عصر من العصور ، فتكلمنا عن قيام الدولة المصرية ونظامها السياسى والادارى والقضائى ، وقد رأينا كيف كانت هذه الدولة منذ عهد الملك مينا مكتملة الكيان راسخة البنيان، مما يدل على أن أسسها قد استقرت وأن أصولها قد نشأت واستمرت قبل عهد ذلك الملك بحقبة طويلة جدا من الزمان •

ثم تكلمنا عن الحياة الاجتماعية لدى قدماء المصريين فرأينا كيف بلغت منذ أقدم العصور مقدارا من الرقى والتقدم والازدهار يكاد أن يضارع فى بعض مظاهره أرقى مظاهر الحياة الاجتماعية فى العصر الحديث وأكثرها تقدما وازدهارا • ورأينا كيف عرف المصريون نظام الأسرة منذ أزمان بعيدة يتعذر تحديدها ، وكيف كانت العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه تكاد أن تصل الى

ذروة الكمال ، اذ كانوا يتبادلون الحب والرعاية والعناية ، ويواجهون الحياة فى تكاتف وتعاطف وتضحية وقوة احتمال ٠

ثم تكلمنا عن العقائد الدينية لدى قدماء المصريين فرأينا كم كانوا حكماء وأتقياء ، ورأينا كيف أنهم منذ عصورهم الأولى كانوا يؤمنون بوجود الله ويؤمنون بوحدانيته ، وبما اجتمع له من صفات الكمال والجلال ، على الرغم مما يبدو للوهلة الأولى من تعدد آلهتهم ، أو من أنهم كانوا يعبدون الأوثان ٠ كما رأينا أنهم كانوا يؤمنون بأن الحياة الدنيا ليست الا اقامة مؤقتة يتبعها الخلود فى الحياة الأخرى ، اذ كانوا يعتقدون أن الانسان ليس جسما ماديا فحسب ، وانما يتكون فضلا عن ذلك من روح خالدة لا تلبث أن تعود فى يوم القيامة الى الجسد الذى تركته لتعيش فيه حياة أبدية ، ولذلك حرص المصريون على تحنيط أجساد موتاهم والمحافظة عليها فى قبور منيعة ٠ كما كانوا يعتقدون أن الانسان يؤدى بعد موته حسابا عن أعماله فى الحياة الدنيا أمام محكمة السماء ، فاذا ثبت لها أنه كان صالحا أدخلته فردوس النعيم واذا ثبت لها أنه كان شريرا ألقت به فى نار الجحيم ، ولذلك حرص المصريون منذ أقدم العصور على انتهاج سبيل الفضيلة والتقوى ، كما حرصوا على أداء فروض العبادة والولاء لله ، فاهتموا باقامة المعابد له وتوجيه الصلوات والابتهالات اليه ٠ وقد خصصوا لذلك جانبا كبيرا من أوقاتهم وثرواتهم وجهودهم ، وقصروا عليه قسطا عظيما من آدابهم وعلومهم وفنونهم ، كما أصبح لرجال الدين منزلة كبرى ونفوذا عظيما لديهم ٠

وبعد ذلك تكلمنا عن الحياة الثقافية لدى قدماء المصريين ، فرأينا كيف أنهم اكتشفوا الحروف الهجائية واستخدموها فى الكتابة منذ أكثر من ستة آلاف عام ، وكيف أنهم حرصوا على تلقى العلم ، والاستزادة منه ما أمكنهم ذلك ، اذ اعتبروه أشرف مطلب فى الحياة ، فكانوا يبادرون بارسال أبنائهم الى المدارس منذ طفولتهم المبكرة ٠ ويظلون يتدرجون بهم من مرحلة الى أخرى

حتى يبلغوا المعاهد العليا ، التى كانوا يسمونها « دور الحياة » ، والتى كانت بمثابة الجامعات فى العصر الحديث ، ورأينا كيف ترك لنا قدماء المصريين من آثار ثقافتهم تراثا خالدا من الآداب الرفيعة ، التى تتمثل فى أروع القصص والأساطير والأناشيد والأغانى والحكم والنصائح والتأملات والتنبؤات ، وقد اقتطفنا أمثلة تبلغ ذروة البلاغة والابداع لكل نوع من هذه الأنواع .

وتكلمنا عن النهضة العلمية لدى قدماء المصريين ، فرأينا كيف بلغوا شأوا عظيما من التقدم فى مختلف العلوم ولا سيما الفلك والرياضيات والطب ، فوضعوا أسس هذه العلوم وكانوا فى ذلك أساتذة العالم كله .

كما تكلمنا عما بلغه قدماء المصريين من قمة عالية فى الفنون منذ بداية عصور التاريخ ولا سيما العمارة والنحت والنقش والرسم والموسيقى ،فخلفوا لنا — من المعابد والصروح والأهرامات والمسلات والتماثيل والتصاوير والرسوم المحفورة على الجدران والمزخرفة بأبدع الألوان — آثارا خالدة ظلت تقاوم الزمان وتبهر أنظارالعالم بضخامتها وفخامتهاوروعتها وبراعة صناعتها، وتثير الرهبة والدهشة والافتتان فى نفوس الناس من كل الأجناس جيلا بعد جيل .

وتكلمنا بعد ذلك عن الحياة الاقتصادية لدى قدماء المصريين فرأينا كيف أنها كانت عاملا جوهريا من عوامل نهضة مصر وازدهار حضارتها ، اذ كانت الزراعة هى الدعامة الكبرى لثروة البلاد ، وبالتالى لازدياد قوتهاوامتداد سلطانها ، حتى غدت من أعظم امبراطوريات التاريخ ، كما رأينا كيف بلغت الصناعة فى مصر القديمة من التقدم والارتقاء درجة لم تكن تضارعها فيها أمة أخرى من أمم العالم ، اذ برع المصريون براعة منقطعة النظير فى صناعة كل ضروريات الحياة وكمالياتها ، مستخدمين فى ذلك كل ما عرفوه أو اكتشفوه من المواد والخامات كالحجر والنحاس والذهب والفضة والخشب والأبنوس

والعاج والزجاج والقيشانى والخزف والفخار والكتان والصوف والقطن والحرير ، وغير ذلك مما يتوفر لدى المصريين فى تربة بلادهم أو يستجلبونه من البلاد الأخرى • ورأينا كذلك كيف راجت تجارة مصر فى الداخل والخارج منذ أقدم العصور ولا سيما حين تمكنوا من بناء السفن ، فكانوا لا يفتأون يجوبون بها البحار فى كل أنحاء بلاد العالم القديم ، حاملين الى شعوبها حاصلات مصر ومنتجاتها ، وعائدين منها بما لدى تلك الشعوب من حاصلات ومنتجات •

ثم تكلمنا أخيرا عن مكانة قدماء المصريين فى العالم القديم وتأثير حضارتهم فى غيرهم من الشعوب المعاصرة لهم • فرأينا كيف قامت الصلة بين مصر وما كان يجاورها من الأقطار منذ العصور السابقة على التاريخ ، وكيف راحت مصر تمد سلطانها على تلك الأقطار حتى سيطرت فى وقت من الأوقات على العالم القديم كله ، وأنشأت امبراطورية شاسعة ، تمتد من أعالى الفرات فى آسيا الى أواسط افريقيا ، ثم كيف دخلت بعد ذلك فى صراع عنيف مع الأشوريين والفرس واليونان والرومان ، فكان للحضارة المصرية الأثر الأكبر فى كل الشعوب التى جاورتها أو أخضعتها أو صارعتها أو ربطتها بها أى صلة من الصلات أو معاملة من المعاملات • وكانت هذه الحضارة هى الأساس والمصدر لحضارات هذه الشعوب وما جاء بعدها منذ بداية التاريخ حتى اليوم •

والآن يجدر بنا فى هذا الجزء الرابع من موسوعة تاريخ الأقباط أن نواصل شرح تاريخ قدماء المصريين منذ اتحاد مقاطعات مصر وقيام الدولة المصرية على يد الملك مينا ، وأن نتناول ــ بقدر ما فى طاقتنا من الايجاز والتركيز ــ سيرة ملوك مصر فى العصور التاريخية ، ومظاهر الحضارة فى كل عصر من تلك العصور ، وما تميز به من الخصائص والصفات ، وما اكتنفه من الظروف والملابسات ، وما اعتراه من عوامل القوة أو القصور ، لأن هذه

التفصيلات هى التى يتكون منها هيكل التاريخ ، وتكمن فيها روحه ، وتنبثق منها حكمته وعبرته ، وتنطلق طاقاته ومؤثراته وقواه التى تخلق من الماضى صورة الحاضر ، وترسم على ضوئه طريق المستقبل ٠ فلا بد لنا من السير فى هذا الطريق من بدايته ، كى نقطعه مرحلة بعد مرحلة ، حتى نصـــل الى نهايته ٠ ولا يجدر بنا أن نشكو من طول الرحلة ما دامت الحقيقة هى غايتنا، وما دمنا نريد أن نكشف عن الصرح الشامخ لتاريخ أمتنا من أســـاسه ٠ فلنمض فى طريقنا ، طالبين الى الله أن يهدينا ويأخذ بأيدينا ٠

وقد خصصنا هذا الجزء الرابع لدراسة العصر الفرعونى من تاريخ قدماء المصريين ٠ ولما كان مانيثون قد قسم هذا العصر الى ثلاثين أسرة ملكية، فقد اقتفى كل المؤرخين أثر ذلك المؤرخ المصرى القديم فى هـــذا التقسيم ، واتفقوا كذلك على تقسيم هذا العصر الى ثلاثة عهود متميزة ، هى عهد الدولة القديمة ، وعهد الدولة الوسطى وعهد الدولة الحديثة ، ويضم كل عهد من هذه العهود عددا من الأسر الفرعونية التى ذكرها مانيثون ٠ وانه وان كان بعض المؤرخين الحديثين قد أدخلوا تعديلات كثيرة فى هذا التقسيم فاننا سنلتزم المنهج التقليدى فى دراستنا للعصر الفرعونى لما فيه من بساطة ووضوح ومن ثم سنتكلم عن الدولة القديمة ، ثم الدولة الوسطى ، ثم الدولة الحديثة ، فى ثلاثة أبواب متتالية ، ينقسم كل باب منها الى فصلين ، نتكلم فى أولهما عن ملوك كل دولة من هذه الدول ، ونتكلم فى ثانيهما عن مظاهر الحضارة فى عهد تلك الدولة ٠ وبذلك نكون قد ألممنا بتاريخ العصر الفرعونى من جميع نواحيه ، ورسمنا له صورة كاملة وشاملة ، نتخذها أساسا بعد ذلك لدراسة تاريخ الأقباط ٠


العصر الفرعوني

البَابُ الأَوَّل

الدَّوْلَةُ القَدِيمَة

الفصل الأول

ملوك الدولة القديمة

الأسرة الأولى

مينـــا وخلفاؤه

تمكن الملك مينا من توحيد الوجهين القبلى والبحرى تحت سلطته عـــام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، فكان بذلك أول ملك يحـــكم أرض مصر مجتمعة ، وكان المؤسس لأول أسرة ملكية فى تاريخ مصر ، بل فى تاريخ العالم كله ٠

وقد نشأ مينا فى مدينة « طينة » بالقرب من « أبيدوس » المعروفة اليوم بالعرابة المدفونة ، فى محافظة سوهاج ٠ وكان من أقوى ملوك الوجه القبلى ، فما فتىء يسيطر على مقاطعات مصر واحدة بعد أخرى حتى أخضعهـــا كلها ، وأقام على رأسها حكومة مركزية راسخة الأساس ، شامخة البنيان ، أمكنـــه بواسطتها أن يقبض على زمام البلاد ، ويوفر لها الأمن والطمأنينة والرفاهيـــة والرخاء ٠ كما أمكنه أن يصد عنها عادية المعتدين وغارات المغيرين ٠ وقد كانت

قبائل الليبيين القاطنة على حدود مصر الغربية لا تفتأ تهاجم البلاد المصرية ، وتنهب أهاليها ، فخرج اليها بجيش عظيم وقضى عليها • كما كانت قبائل النوبيين القاطنة على حدود مصر الجنوبية لا تفتأ تشن الغارة بعد الأخرى لسلب ما يقع في يدها من خيرات مصر ، فزحف اليها بجيشه وشتت شملها واستولى على بلادها ، حتى أصبحت حدود مملكته الجنوبية تمتد الى الشلال الأول في وادى النيل • وهكذا استطاع ذلك الملك العظيم أن ينشىء منذ أكثر من خمسة آلاف عام ، دولة قوية مرهوبة الجانب مهيبة السلطان ، يرتفع في جنباتها لواء المدنية ، وتسطع فوق رباها شمس الحضارة ، بينما كان العالم كله يهيم في ظلام الحياة البدائية المتخلفة في ذلك العصر السحيق •

وقد رأى مينا أن عاصمة البلاد بعد توحيد الوجهين القبلي والبحرى ينبغي أن تكون في مكان متوسط بين هذين الوجهين ، فاختار لذلك موقعا تقوم عليه اليوم قرية ميت رهينة بمحافظة الجيزة ، وهنالك وضع أساس تلك المدينة العظيمة التى أصبحت عاصمة لمصر طوال أيام الدولة القديمة ، والتى كانت تعرف باسم « من نفر » أى الميناء الجميل ، ثم سماها اليونان « منفيس » ، ثم أصبح اسمها بعد ذلك « منف » •

وبعد أن استمر مينا في الحكم زمنا طويلا ، وقام بأعمال مجيدة ، وترك آثارا خالدة ، مات ودفن في أبيدوس • بيد أن ذكراه بقيت بعد موته مقرونة بالمهابة والتوقير في قلوب الفراعنة الذين خلفوه ، حتى لقد اعتبروه في منزلة الاله ، وظلوا على مر الأجيال يقدمون له فروض العبادة والاجلال •

وقد سار خلفاء مينا في ذات الطريق الذى رسمه ، فعملوا على توطيد حكم البلاد في الداخل ، وتأمين سلامتها في الخارج ، حتى احتفظوا بوحدة دولتهم وحافظوا على كيانها ، وكفلوا تقدمها في الحضارة من طور الى طور • ومن أبرز أولئك الملوك الذين وصلت الينا بعض أنبائهم الملك « سر »

الذى يقال أنه كتب سفرا فى علم التشريح ، وقد تقدمت فى عصره العلــوم والفنون • والملك « زت » الذى كان يكثر من ارسال البعوث الى الصحراوات المحيطة بمصر وشواطىء البحر الأحمر لاستغلال المناجم والمحاجر فيها • والملك « ودمو » وهو أول من أطلق على نفسه لقب « ملك الوجهين القبلى والبحرى » ، كما أنه أول من فكر فى تنظيم وسائل الرى فى منطقة الفيوم ، وأول من حبس الأوقاف على المعابد • وقد فتح حدود بلاده للتجارة الخارجية وعمل على تنمية موارد البلاد وتحصين مدنها • ويقال أنه اشترك فى تأليف « كتاب الموتى » • ومن الملوك الذين خلفوا مينا كذلك « تمرايب » و « سمرخت » و « ميببيس » و « يوسفايس » •

وكانت عاصمة ملوك الأسرة الأولى فى بادىء الأمر « طينة » ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى « منف » •

وكان عهد هذه الأسرة مقرونا بنمو مستمر فى قوة المملكة وحضارتها ورفاهيتها : فكان النظام الحكومى للبلاد قائما على أسس متينة ، مستمدة مما كان يسود مصر قبل الوحدة من نظم وتقاليد ، وقد جرت الأمور فى شطرى البلاد على منهاجها القديم ، فظلت هناك ادارة للجنوب وادارة للشمال ، وان كان الملوك قد عملوا على تنسيق العمل بين الادارتين • كما كانت حضـــارة الأسرة الأولى امتدادا لحضارة عصر ما قبل الأسرات ، بيد أنها كانت فى ذات الوقت بمثابة حجر الأساس لتلك الحضارة العظيمة التى شملت مصر بعد ذلك فى عصورها الزاهرة • وقد بلغت البلاد فى عهد هذه الأسرة درجة رفيعة من التقدم الاجتماعى ، وبدأ فيه وضع المؤلفات فى اللاهوت المصرى وتجميــع النصوص الدينية • كما بدأ فيه ظهور العلوم ولا سيمـــا الفـــلك والطب والهندسة ، وازدهار الفنون ولا سيما العمارة والنحت ، واستمرار التفــوق والمهارة فى صناعة الآلات والأدوات من المعادن والأحجار الثمينة ، وفى أعمال النسيج والنجارة الدقيقة وصياغة المجوهرات وأدوات الزينة • فكانت هــذه

كلها من المظاهر البارزة لما شمل البلاد فى عهـــد الأسرة الأولى من مدنيـة ورخاء ٠

الأسرة الثانية

سخموى وخلفـــاؤه

وكان أول ملوك الأسرة الثانية هو الملك « حتب سخموى » ٠ ثم جـاء بعده الملك « نب ــ رع ــ كا ــ كاو » ٠ ثم الملك « نتر ــ ان » ، وفى عهده انتظم الاحتفال بالأعياد ولا سيما عيد حوريس الذى كان يعتبر اله المملكة ٠ ثم جاء بعد ذلك الملك « بر ــ اب ــ سن » وقد أحدث تغييرات هامة ، اذ جعل عاصمة ملكه « أبيدوس » بدلا من « منف » ، وبعد أن كان اسمه مقرونا باسم الاله « حوريس » كما كانت أسماء كل الملوك الذين سبقوه ، قرن اسمه باسم الاله « ست » ٠ وكان آخر ملوك الأسرة الثانية هو الملك « خع نحموى » وقد جمع فى لقبه بين الالهين « حوريس » و « ست » ٠

وقد جاء ملوك الأسرة الثانية ــ كما جاء ملوك الأسرة الأولى ــ من مدينة « طينة » ٠ وفى عهدهم تم توحيد النظام الادارى المتبع فى كل من الوجهين القبلى والبحرى بعد أن ظل منفصلا كما رأينا فى عهد الأسرة الأولى ٠ كما أن ملوك الأسرة الثانية ــ وهى فى الأصل من الوجه القبلى ــ عمدوا الى الزواج من أميرات الوجه البحرى ، فساعد ذلك على توطيد وحدة البلاد وتمهيد الطريق لاستمرار تقدمها ٠

وقد امتد حكم الأسرتين الأولى والثانية من عام ٣٢٠٠ الى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، أى نحـــو قرنين من الزمان ، خضعت فيهما البـلاد لحكم الملك مينا وسلالته ٠

الأسرة الثالثة

زوسر وخلفــاؤه

وكان مؤسس الأسرة الثالثــة هــو « نترخت زوسر » الذى يعتبره المؤرخون من أعظم فراعنة الدولة القديمة ، وقد جلس على العرش حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وكانت عاصمة ملكه « منف » ومن أروع ما بقى لنا من آثاره الهرم المدرج الذى بناه فى ســقارة ليكون قبرا له ، ولــذلك اعتبر المؤرخون عهده بداية عصر بناة الأهرام • ويعتبر هرمه أضخم بناء حجرى تم فى عصره ، وقد أقيمت حوله مجموعة من الأبنية الضخمة لاقامة الشــعائر الجنائزية للملك زوسر على مساحة تبلغ أربعين فدانا ، يحيط بها سور شامخ من الحجر يزيد ارتفاعه على عشرة أمتار •

وقد تابع زوسر سياسة الملوك الذين سبقوه فى توطيد وحدة البــلاد وتدعيم الأمن فيها والسهر على سلامة حدودها • ويعزى نجاح هذا الملك الى وزيره « امحوتب » الذى اشتهر بالحكمة واشتغل باللاهوت والطب والهندسة، فكان فى كل ذلك أعجوبة عصره ، وقد بلغ من شدة تعلــق المصريين به وتقديرهم له على مر العصور انهم رفعوه بعد موته بمئات السنين الى مرتبة الآلهة واعتبروه « اله الطب » ، وقد ترنم الناس بأمثاله عــلى مدى التاريخ المصرى القديم ، وكان اليونان يعرفونه باسم « أموزيس » ، وقد بلغ فن العمارة على يديه ذروة شاهقة ، اذ عمم البناء بالحجارة بعد أن كان باللبن • وهو الذى أشرف على بناء هرم زوسر المدرج فى سقارة •

وقد حكم زوسر نحو تسعة وعشرين عاما • ثم جلس على العرش بعد موته عدد من ملوك الأسرة الثالثة لم يصلنا الا القليل من أخبارهم ، ومنهم

« سانخت » و « حايا » و « نفركا » • وكان آخر ملوك الأسرة الثالثة هو الملك « حدنى » •

وقد استمر حكم الأسرة الثالثة من عام ٣٠٠٠ الى عام ٢٩٠٠ قبل الميلاد، أى نحو مائة عام ، بيد أن تاريخها بقى زمنا طويلا يكتنفه الغموض ، حتى أمكن العثور فى السنوات الأخيرة على آثار تنطق بما بلغته البلاد فى عهدها من الازدهار فى كل مظاهر الحضارة ولا سيما اللاهوت والأدب والفن •

الأسرة الرابعة

سنفرو

وكان مؤسس الأسرة الرابعة هو الملك « سنفرو » الذى اشتهر بالقوة والحنكة • وقد تجلى ذلك فيما قام به من أعمال جليلة ، وما بلغته البلاد فى عهده من تقدم ورفاهية ، ومن أهم ما يؤثر عنه أنه أرسل أسطولا بحريا من أربعين سفينة الى ساحل فينيقيا لجلب خشب الأرز الذى تشتهر به تلك البلاد • وتعد هذه أول رحلة بحرية فى التاريخ • كما اهتم سنفرو ببناء السفن النيلية لنقل المحاصيل وتيسير الانتقال بين مختلف أنحاء القطر ، وكان يستخدمها موظفو الدولة فى الاشراف على ادارة الأقاليم • وقد تابع هذا الملك العظيم ارسال البعوث الى شبه جزيرة سينا لاستخراج النحاس من مناجمها ، وأخضع قبائل البدو التى كانت تهدد سلامة هذه البعوث ،ومن ثم وطد سلطان مصر فى تلك الجهات ، وأصبحت له مهابة عظيمة لدى ساكنيها حتى اعتبروه الها وعبدوه مع الههم « سوبد » • كما نظم سنفرو وسائل الدفاع عن حدود مصر الأخرى فأخضع الليبيين والنوبيين ، ووطد التجارة مع الأقطار الشمالية، وقد شيد لنفسه هرما بجهة ميدوم بين منف والفيوم على نمط الهرم المدرج

بسقارة . وقد استمر فى عهده ارتقاء الفنون والصناعات . ولما مات خلفه ابنه خوفو .

خوفو

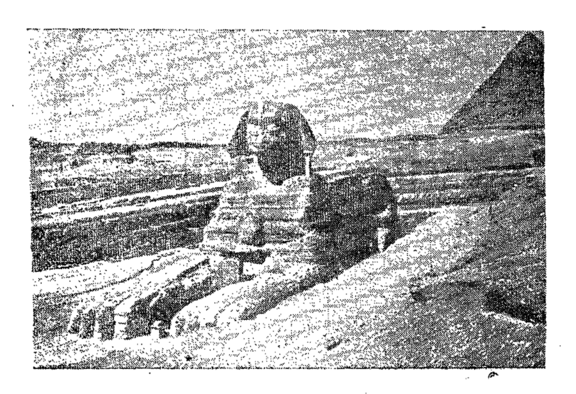
ومن أعظم الأعمال التى قام بها خوفو وخلدت اسمه فى التاريخ مقرونا بالهيبة والاجلال ، هرمه الأكبر الذى بناه فى الجيزة ، ولا يزال قائما حتى اليوم بعد خمسة آلاف عام ، بمثابة دليل رائع على ما بلغه المصريون فى ذلك العصر البعيد من تقدم يدعو الى الدهشة فى فنون الهندسة والبناء واستخدام قوى الطبيعية ، وما بلغته الحكومة حينذاك من قوة وقدرة على الادارة والتنظيم. وقد بنى خوفو بالقرب من هرمه معبدين ، أحدهما معبد جنائزى لتلاوة الصلوات والابتهالات بعد موته كى يشمله الله برحمته ، والثانى يسمى معبد الوادى ليتعبد فيه الشعب . ويصل بين المعبدين طريق مرصوف بالحجارة .

وقد قام خوفو فضلا عن ذلك بكثير من الأعمال الهامة ، ومنها أنه تابع ارسال البعوث الى سينا لاستخراج المعادن من مناجمها وأخضع القبائل التى كانت تهدد الطريق اليها وتعقبهم الى أقصى الشمال حيث عرف شيئا عن المدنية البابلية . كما أنه بسط نفوذه على بلاد النوبة .

ددف رع وخفرع

وبعد موت خوفو خلفه « ددف رع » وقد بنى لنفسه هرما فى أبى رواش، ثم خلفه بعد موته أخوه « خفرع » فبنى الهرم الثانى بالجيزة ، وهو يقل فى الحجم قليلا عن هرم خوفو . وكانت بداخله تماثيل من الديوريت يعتبرها العلماء من أبدع قطع الفن المعروفة فى التاريخ حتى اليوم . ولهذا الهرم كما للهرم الأكبر معبدان ، هما المعبد الجنائزى ومعبد الوادى ، ويصل بينهما كذلك

طريق طويل . ويوجد بالقرب من معبد الوادى تمثال من أضخم التماثيل فى العالم،وهوالمعروف بأبى الهول .ويذهبفريق من الباحثين الى أنهأقيم فى عصر ما قبل التاريخ ، ويذهب فريق آخر الى أنه أقيم فى عهد خوفو . بيد أن الراجح أنه أقيم فى عهد خفرع ، لأن رأس التمثال يشبه رأسه . وكان قدماءالمصريين يعتبرون المنطقة التى يقوم فيها أبو الهول منطقة مقدسة ، وقد ظل الملـــوك



« أبو الهول »

والأباطرة يزورونها ويتبركون بها الى عهـد الامبراطور سبتيموس سفيروس فى بداية القرن الثالث بعد الميلاد .

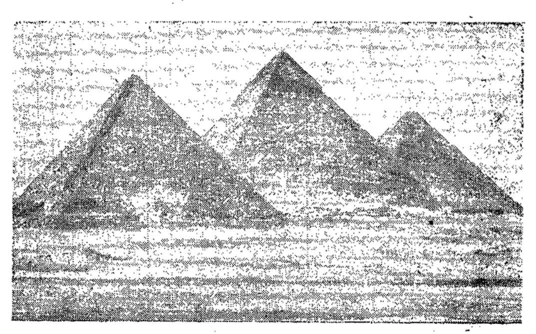
منقـــرع

وبعد وفاة « خفرع » خلفه ابنه « منكاورع » أو « منقرع » ، وكان تقيا حكيما فأحبه المصريون . وقد بنى الهرم الثالث بالجيزة ، وهو يقل فى الحجم عن هرمى خوفو وخفرع . ولهذا الهرم كذلك معبدان هما المعبد الجنـــائزى

ومعبد الوادى · وكان بمعبد الوادى تمثال بديع للملك وزوجته ، كما كانت به أدوات وآنية فنية من أنفس آثار الدولة القديمة ·

شبسسكاف وخنت كاوس

وقد خلف « منقرع » ابنه « شبسسكاف » ، ثم بعد وفاة هذا خلفته أخته



« أهرامات الجيزة »

الملكة « خنت كاوس » ، وقد بنت لنفسها هرما في الجيزة بالقرب من هرم أبيها « منقرع » ·ويقول البعض أن الملكة «خنت كاوس» هي ذاتها «نيتو كريس» التي ذكرها المؤرخون الأقدمون وسماها اليونان « رادوبيس » · كما يذكر بعض المؤرخين أن الملكة « خنت كاوس » تزوجت من رئيس كهنة عين شمس وأنجبت منه أوسركاف الذى جلس على العرش بعدها ، وأسس الأسرة الخامسة ·

وقد استمر حكم الأسرة الرابعة من عام ٢٩٠٠ الى عام ٢٧٥٠ قبل

الميلاد ، أى نحو مائة وخمسين عاما • وفى عهد هذه الأسرة بلغ المصريون من التقدم والرقى درجة لم يسبق لهم أن بلغوها •

بيد أنه حدث فى عهد هذه الأسرة أن ازدادت مكانة الاله رع • وقد اعتبر ملوكها أنفسهم أبناء ذلك الاله فقرن كثير منهم أسماءهم باسمه ، وكان من نتيجة ذلك أن ازداد نفوذ كهنة عين شمس التى كانت مركزا لعبادة رع واشتدت سيطرتهم على الحكم شيئا فشيئا حتى أمكنهم آخر الأمر أن يطيحوا بالأسرة الرابعة ويستولوا على العرش •

الأسرة الخامسة

أوسركاف وخلفاؤه

وأول ملوك الأسرة الخامسة هو « أوسركاف » • وكان قبل توليه العرش رئيسا لكهنة عين شمس • وهو ابن الملكة « خنت كاوس » • وقد سعى أوسركاف الى تثبيت مركز أسرته • ومن أعماله المعروفة أنه أرسل الحملات الى بلاد النوبة حتى بلغت الشلال الأول ونقش اسمه على صخوره • وبعد موته خلفه « سحورع » ، وقد شيد لمصر أسطولا بحريا جعلها أول دولة بحرية عرفها التاريخ ، وأوفد بعض سفنه الى الصومال وخليج عدن لجلب الذهب والفضة والأبنوس والبخور والزيوت العطرية • كما حارب « سحورع » الأسيويين والنوبيين دفاعا عن بلاده ، وبنى معبدا لاله الشمس رع فى أبى صير بالقرب من منف • ثم خلفه « نفر كارع » وقد بنى هرما ومعبدا لرع فى أبى صير • ومما يعرف عنه أنه حبس أوقافا عظيمة باسم «التاسوع المقدس» ، وأقام مذبحا للاله رع والالهة حاتحور • ثم جاء بعده « شيبس كارع » ، ثم « نفر كارع » ثم « نوسر كارع » ، وكان هذا الاخير شخصية هامة فى تاريخ الأسرة الخامسة ، وقد امتد حكمه نحو ثلاثين عاما • ثم خلفه « منكاورع » ثم

« زد كارع » أو « ايسيس » ، وكان عهده حافلا بالأعمال العظيمة ، وقد ظل على العرش ثمانية وعشرين عاما . وكان لهمرب يدعى « بتاح حوتب » اشتهر بالحكمة ، كما اشتهر وزيره « سنزم ايب » .

أونـــاس

وكان آخر ملوك الأسرة الخامسة هو « أوناس » الذى يعتبره المؤرخون من أعظم فراعنة هذه الأسرة ، وقد حكم البلاد زهاء خمسين عاما ، قام أثناءها بأعمال جليلة فأرسل حملات لاخضاع بلاد النوبة ونقش اسمه عــلى الشلال الأول مشفوعا بلقب « سيد البلاد » ، وبنى فى سقارة هرما تزخر جـدرانه بكتابات يسميها العلماء « نصوص الأهرام » أو « متون الأهرام » ، وهى عبارة عن صلوات وابتهالات دينية ، كان المصريون يتوسلون بها الى المحافظــة على الأموات فى حياتهم الأخرى . وقد أفادت هذه الكتابات العلمـــاء فى معرفة الكثير عن عقائد قدماء المصريين .

وقد حكمت الأسرة الخامسة من عام ٢٧٥٠ الى عام ٢٦٢٥ قبل الميلاد ، أى نحو مائة وخمسة وعشرين عاما ، وكانت عاصمتها « منف » .

ولشدة تعلق ملوك الأسرة الخامسة بعبادة رع ، شيدوا عددا كبيرا من المعابد لهذا الاله بجوار منف ، وقد اتبعوا فى تشييد هذه المعابد نسقا واحدا هو ساحة كبيرة يقوم فى وسطها مذبح عظيم ويتلوها فناء تحيط به أعمدة من الجرانيت الوردى تعلوها تيجان مزينة بزخارف على هيئة نبات البردى وزهرة اللوتس ، وتقوم على جانبيه حجرات عديدة ، ثم ينتهى فى آخره بمصطبــة ضخمة تنتصب فوقها مسلة شاهقة كانوا يعتبرونها رمزا للاله رع وصورة لقدس الأقداس . وقد حبسوا على هذه المعابد أوقافا عظيمة ، ومن ثم كثرت أملاك رع وعلت منزلته فازداد نفوذه وبالتالى ازداد نفوذ كهنته .

وكانت أهرام الأسرة الخامسة أصغر حجما من أهرام الأسرة الرابعة ، اذ كان ملوكها يعتبرون أنفسهم أبناء رع ، ومن ثم لم يكونوا يهتمون ببنـــاء الأهرام لأنفسهم ، وانما كانوا يوجهون كل عنايتهم وجهودهم لارضاء ذلك الاله باقامة المعابد له • بيد أن هذه الأهرام رغم صغرها كانت أبدع من سابقتها نقشا وأجمل زينة ، وأشهرها هرم أوناس بسقارة •

وكان عهد الأسرة الخامسة عهدا ذهبيا للفن والفلسفة الدينية والأدب ، وقد برزت الروح الأدبية على الخصوص حينذاك فى صورة النصائح والمواعظ الاخلاقية والتأملات الفلسفية • وقد كتب « بتاح حوتب » نصائحه فى عهد هذه الأسرة ، فكانت نبراسا للأدب الرفيع والحكمة البالغة فى كل عصـــور التاريخ المصرى القديم •

وقد ظلت وراثة العرش محصورة فى أسرة الملك « مينا » حتى عهد الملك « أوناس » آخر ملوك الأسرة الخامسة ، ثم انتقل العرش بعد ذلك الى أسرة أخرى • وذلك أنه حين حكمت الأسرة الخامسة تحت نفوذ كهنة عين شمس ، وانصرف الفراعنة الى الشئون الدينية ، انتهز حكام المقاطعات الفرصة لتدعيم نفوذهم فى مقاطعاتهم ، واحتكروا مناصبهم لأنفسهم ولأبنائهم من بعدهم ، ومن ثم استفحل أمرهم وعجز الملوك عن كبح جماحهم ، حتى اضطـــروا فى أواخر عهدهم الى تعيين أحدهم حاكما عاما للوجه القبلى ، ليستعينوا به فى المحافظة على سلطانهم • وبعد أن كان الملك فى عهد الأسرة الرابعة يعين ابنه الأكبر وزيرا وقائدا للجيش وكبيرا للقضاة ، انتقلت تلك المناصب فى عهـد الأسرة الخامسة الى عائلة اشتهرت باسم « بتاح حوتب » وأصبحت وراثية فيها • وقد أدى تزايد سلطة حكام المقاطعات الى انفصالهم عن سلطة فرعون ، ثم انتهى الأمر بأولئك الحكام الى الاطاحة بالأسرة الخامسة بعد انتهاء حـــكم أوناس حوالى عام ٢٦٢٥ قبل الميلاد ، وأعلن كل حاكم استقـــلاله بمقاطعته واستعاض عن لقبه الأول وهو « حاكم المقاطعة » بلقب « السيد العظيم » ،

فكان هذا الانقلاب الداخلى هو أقدم وأخطر مثال فى التاريخ لانحلال السلطة المركزية وانقسامها الى سلطات فرعية صغيرة ٠

الأسرة السادسة

تيتى وخلفــاؤه

أما مؤسس الأسرة السادسة فهو الملك « سحتب تاوى تيتى » ، وكانت عاصمة ملكه « منف » ٠ ولم يصلنا عنه كثير من الأخبار سوى أنه ظهر فى عهده رجل عظيم يدعى « أونى » عاش سنين طويلة وخدم عدة ملوك ، وكان فى أول أمره مديرا للزراعة وضياع الملك ، ثم ارتقت به كفايته حتى صار أميرا وحاكما للوجه القبلى ونائبا للملك فى « نخن » ٠ وقد خلف « تيتى » ملوك ضعاف حكموا مددا قصيرة كانت مليئة بثورات الجند ، فلم يتركوا آثارا جديرة بالذكر ٠

بيبى الأول

ثم اعتلى العرش ملك قوى يدعى « بيبى الأول » ، كان من أعظم الملوك الذين جلسوا على عرش مصر ، وقد حكم البلاد زهاء خمسين عاما ذاع فيهما صيته ، حتى لقد سمى كثير من المصريين أبناءهم باسمه ٠ وقد عثر الباحثون على تمثالين له من النحاس غاية فى دقة الصناعة وبراعة التصوير ٠ وقد بنى « بيبى الأول » هرما فى سقارة ونقش على جــدرانه كتابات تشبه متون هرم أوناس ٠ على أن أهم مصدر نستقى منه أخبار هذا الملك ، ما كتبه « أونى » على جدران القبر الذى بناه لنفسه بالعرابة المدفونة ، يصف به ما أتـــاه من أعمال مختلفة فى عهود الملوك العديدين الذين خدمهم ٠ ونستدل مما كتبـــه

« أونى » على أن « بيبى الأول » قام بحروب كثيرة ، فأخضع النوبيين وألزمهم بأن يمدوه بالجنود اللازمين لحروبه . ولما اعتدت القبائل الأسيوية على شرق الدلتا وعطلت استخراج المعادن من شبه جزيرة سينا أرسل اليهم جيشا عظيما بقيادة « أونى » فهزمهم وشتت شملهم . ثم أغارت بعض القبائل التى كانت تقطن بين نهرى الدجلة والفرات على فلسطين وهددت مصر ، فجهز « بيبى الأول » جيشا بريا بقيادة « أونى » وأرسله عن طريق البحر بواسطة أسطول عظيم الى فلسطين فغزاها وطرد القبائل المغيرة منها ، ودفع بذلك عن مصر شرها . ويعتبر المؤرخون هذه الحملة أول عمل حربى تشترك فيه القوات البرية والبحرية فى التاريخ . وقد حاول حكام المقاطعات فى عهد « بيبى الأول » أن ينفصلوا عن سلطته ولكنه ألزمهم حدهم وحافظ على نفوذه فى القطر كله . وهكذا وطد مركز أسرته ثم توفى بعد أن حكم عشرين عاما فأعقبه ابنه « مرنرع » .

مرنرع

وكان مرنرع حين جلس على العرش صبيا صغيرا ، ثم توفى بعد أن أمضى فى الحكم فترة قصيرة لا تزيد على سبع سنوات ، ومع ذلك استمرت أعمال الاصلاح فى عهده بفضل « أونى » ، وقد بلغ من تقدير الملك له أن عينه حاكما للوجه القبلى ، وهو منصب لم يكن يناله الا أكثر الناس كفاءة واخلاصا للملك، ومن الأعمال الهامة التى قام بها « أونى » فى عهد « مرنرع » أنه حفر خمس قنوات خلال الصخور الجرانيتية التى تعترض مجرى النيل عند الشلال الأول، ففتح بذلك طريقا ميسرا للملاحة فى أعالى النيل ، وبعد انتهاء ذلك العمل الجليل قصد الملك بنفسه الى هناك حيث نقش اسمه وألقابه على صخور الشلال ، وتقبل فروض الطاعة والولاء من رؤساء النوبة . وقد قام المصريون فى عهد هذا الملك برحلات كثيرة ، ووصلوا الى أواسط افريقيا ، فكشفوا بعض

مجاهلها ، ونقلوا الى العالم كثيرا من أخبارها . ومن أعظم المكتشفين المصريين في ذلك العصر « حرخوف » الذى كان مديرا للقوافل وحاكما لجزيرة الفنتين. وكان مرنرع شابا شديد البطش فوطد سلطانه فى البلاد . وما فتئت البعوث التى أرسلها تجوب البلاد الافريقية ثم تعود منها محملة بالذهب والحديد والأبنوس وجلد النمر وسن الفيل وريش النعام والدهون العطرية والمر والراتنج والبخور . وقد مات « مرنرع » فى مطلع شبابه ولم يكن له وريث من صلبه فخلفه أخوه « بيبى الثانى » .

بيبى الثانى وخلفاؤه

وكان « بيبى الثانى » حين جلس على العرش فى السادسة من عمره ، وقد ظل يحكم البلاد حتى مات وعمره مائة سنة . وكان ممن عاونوه فى الحكم أثناء سنواته الأولى أمه وخاله المسمى « زاو » ، وفى عهد هذا الملك توطدت سلطة مصر فى النوبة حتى لقد عين الملك عليها حاكما عاما من قبله . وتتابعت البعوث فى عهده الى خارج البلاد ، ومنها بعثة كان يرأسها « حرخوف » الذى سبق ذكره . كما قامت حملة الى شمال البحر الاحمر لتأديب الآسيويين على غاراتهم .

وبعد وفاة « بيبى الثانى » خلفه عدة ملوك حكموا مددا قصيرة وكانوا ضعافا فخرجت السلطة من أيديهم وقويت شوكة حكام المقاطعات الذين لم يعودوا موظفين تعينهم الحكومة ، وانما أصبحوا أشرافا يهيمن كل منهم على مقاطعته ويرثها ابنه من بعده . ثم لم يلبثوا أن راحوا ينافسون بعضهم بعضا ويحاول كل منهم أن يبسط سلطانه على غيره من الحكام بقوة السلاح ، فنشبت الحروب واختل الأمن ومن ثم سقطت الأسرة السادسة بعد أن حكمت من عام ٢٦٢٥ الى عام ٢٤٧٥ قبل الميلاد ، أى نحو مائة وخمسين عاما .

وكانت عاصمة الأسرة السادسة هى منف ، وكان الاله الذى تعبده هو « بتاح » ، ومن ثم ازداد نفوذ كهنة هذا الاله ، بينما تضاءل نفوذ كهنة رع .

وبعد سقوط الأسرة السادسة ، انتشرت الفتن وكثرت المنازعات وانهارت السلطة المركزية فى البلاد فانفرط عقد وحدتها وعادت الى ما كانت عليه قبل الملك مينا من تفكك وانقسام ، بعد أن سيطرت عليها حكومة نظامية مدة من الزمان تزيد على سبعة قرون .

الأسرتان السابعة والثامنة

وقد استمر الانحلال السياسى والاضمحلال الاجتماعى ونشطت عوامل الهدم والتخريب فى البلاد ، وامتدت الأيدى العابثة الى المعابد فهدمتها والى المقابر فنهبتها والى تماثيل الملوك فحطمتها . وما فتئت الفوضى تضرب أطنابها زمنا طويلا فى كل أنحاء الوادى حتى استطاع بعض الأمراء فى النهاية أن يقبضوا على زمام السلطة ، فأسسوا حكومة مركزية فى منف يعتبرها المؤرخون الأسرة السابعة . بيد أننا لم نعثر على أى شىء من آثارها نستدل منه على أخبارها .

وبعد سقوط الأسرة السابعة خلفتها الأسرة الثامنة ، وكانت عاصمتها منف ، ولم نعثر لها على أى آثار كذلك .

وقد حكمت الأسرتان السابعة والثامنة من عام ٢٤٧٥ الى عام ٢٤٤٥ قبل الميلاد ، أى نحو ثلاثين عاما .

الاسرتان التاسعة والعاشرة

وقد ظهرت بعد ذلك أسرة قوية فى ناحية أهناس المدينة عند منخفض الفيوم بمحافظة بنى سويف واغتصب زعيمها الأمير « خيتى » عرش مصر من ملوك الأسرة الثامنة وأسس الأسرة التاسعة ، ثم أعقبتها الأسرة العاشرة .

وكان « خيتى » ملكا عاتيا حازما فأخذت البلاد تنتعش فى عهده ، ثم جاء بعده « تف ايت » ثم « خيتى الثانى » وقد ساد فى عهده الرخاء والهدوء ، ثم « خيتى الثالث » وكان ملكا حكيما بقيت لنا بعض نصائحه التى وجهها الى ابنه . ثم « خيتى الرابع » - وكان آخر ملوك الأسرة العاشرة هو « منتوحتب الثانى » .

وقد حكمت الأسرتان التاسعة والعاشرة من عام ٢٤٤٥ الى عام ٢١٦٠ قبل الميلاد ، أى نحو ٢٨٥ عاما . وكانت عاصمتهما « هيراكليو بوليس » المعروفة الآن باسم « أهناس المدينة » . وكان ملوك هاتين الأسرتين على شيء من القوة ، ولكنهم مع ذلك لم يتركوا آثارا تدل عليهم . وبانتهـــاء الاسرة العاشرة انتهى عهد الدولة القديمة .

الفصل الثانى

مظاهر الحضارة فى عهد الدولة القديمة

١ ـــ النظام السياسى

سيطرت على مصر منذ بداية الدولة القديمة وفى معظم عهدها حكومة منظمة وطيدة الدعائم قادرة على تسيير دفة الحكم فى البلاد ، وقد ازدهرت فى كنفها الحضارة فبلغت حدا بعيدا من التقدم والارتقاء ٠

وقد كانت أعمال ملوك الدولة القديمة جديرة بكل اعتبار وفخار ، وقد حكموا البلاد مدة تقرب من ألف عام ، فلم يتوانوا خلال هذه الفترة الطويلة من الزمان عن توطيد أركان المملكة وتوجيه مجهوداتها نحو النافع المثمر العائد بالخير والرفاهية على الشعب المصرى ، فلا عجب اذا كان هذا الشعب قد أحب أولئك الملوك وأنزلهم من نفسه منزلة المعبودات التى يتوجه اليها بالتقديــر والتقديس والاجلال ٠ ثم ظل يذكرهم ويوقرهم على مدى الأجيال حتى نهاية العصر الفرعونى ٠

وكان الملك فى عهد الدولة القديمة هو الحاكم المطلق فى البلاد ، وكان

هو المسئول عن رعاية شعبه وحمايته ، وتوفير الظروف التى تكفل له أكبر قدر من الرفعة والرخاء • وفى هذا السبيل كان فرعون لا يفتأ ساهرا على تدبير وسائل العيش لرعاياه بتوسيع رقعة الأرض الصالحة للزراعة وتشجيع الصناعة واستخراج المعادن والأحجار اللازمة لذلك من المناجم والمحـــاجر ، وارسال البعوث الى البلاد البعيدة لجلب الثمـــين النـــادر من مزروعاتها ومصنوعاتها ، كما كان لا يفتأ يصد عن بلاده غائلة المغيرين من الجـــيران الطامعين والغرباء الجشعين •

وقد ظلت مصر فى ظل فراعنتها الأقوياء متحدة متماسكة البنيان الى أواخر أيام الأسرة الخامسة ، التى أقامها كهنة رع بعد أن استولى كبـــيرهم « أوسر كاف » على عرش البلاد • بيد أن الخلافات السياسية والدينية لـــم تلبث أن نشبت بعد ذلك ونشأت عنها تصدعات خطيرة فى سلطة فرعون • وقد انتهز حكام المقاطعات الفرصة فبدأوا يجاهرون بالعصيان والتمرد على الحكومة المركزية ويستأثرون بالسلطان فى مقاطعاتهم • وما فتئوا يغتصبون من ملوك الأسرة السادسة ما يملكون من نفوذ حتى أطاحوا بهذه الأسرة فى آخر الأمر • وعندئذ اشتد ساعدهم وتوطد استقلالهم فراحوا يحيطون أنفسهم بمظاهر الوجاهة والرفاهية وينتحلون لأنفسهم ألقاب التعظيم والتشريف ، ومن ثم أصبح الملوك بعد ذلك يخشونهم ولم يجدوا مناصا من تملقهم والتقرب اليهم بالتزوج من بناتهم • وقد أسندوا الى واحد من زعمائهم منصب « حاكم الوجه القبلى » ، وهو من أكبر مناصب الدولة ليستعينوا به على قضاء حاجاتهم بيد أن هذه المحاولات كلها لم تزد الحكام الا عجرفة وصلفا ، حتى استقلوا تماما عن سلطة فرعون ، وراحوا فى ظل النظام الاقطـــاعى الذى أنشأوه واستمرأوه يعيشون عيشة الملوك فى قصور فخمة ذات رياش فاخرة • وقد أكثروا حولهم من الخدم والحشم والحجاب والحراس ، وغير ذلك من المظاهر التى كان ينفرد بها فرعون من قبل • أما قبورهم فبعد أن كانوا يقيمونها حول

قبر فرعون ، أصبحوا ينحتونها فى الصخر داخل مقاطعاتهم . وهكذا أصبح كل حاكم يعتبر نفسه ملكا لمقاطعته ومالكا لها ومتصرفا فى كل ما فيها .

وفى ذلك العصر الاقطاعى ظهرت الطبقة الوسطى من الشعب ، وكانت تتكون من الصناع والفنانين والتجار والموظفين ذوى الثراء . وقد أصبح الكثيرون من أهل هذه الطبقة الجديدة يملكون الحدائق الواسعة والمنازل الرائعة والقبور الفخمة التى لم يكن يتيسر اقتناؤها قبل ذلك الا للملوك والأمراء . أما عامة الشعب فى هذا العصر فقد سادهم البؤس والفقر .

وقد استمر حكم الدولة القديمة من عام ٣٢٠٠ الى عام ٢٢٧٠ قبل الميلاد أى نحو ٩٣٠ عاما .

٢ — النظام الإدارى

وقد أصبح لمصر بعدتوحيدها نظام حكومى ثابت . وفى هذا العهد تجلت حكومة البلاد وادارتها الداخلية فى مظهر يكاد أن يبلغ حد الكمال . وقد بذل ولاة الأمور جهدا كبيرا فى تنسيق النظام الادارى للبلاد على ضوء ما كان سائدا قبل الاتحاد من نظم وتقاليد ، فظلت هناك ادارة للجنوب وأخرى للشمال تحت امرة فرعون . بيد انه لم تمض فترة من الزمان بعد ذلك حتى تم توحيد النظام الادارى فى الجنوب والشمال .

وكان الملك هو رأس الدولة وصاحب السلطان المطلق فى كل شئونها . وكان يتم تنصيبه فى المعبد ، حيث يصب عليه الكهنة الماء المقدس ، ويضع رئيس الكهنة التاج على رأسه والصولجان فى يده ، ثم يطلق أربعة طيور تحمل فى رقابها رسائل الى جميع الجهات تبشر بتتويج فرعون .

وكان الملك يهتم بتربية أبنائه الأمراء ، ويعين الممتازين منهم وزراء له أو حكاما للمقاطعات أو قوادا للجيش . وكان يعهد برعايتهم فى صغرهم الى

مربين يتولون تعليمهم وتأديبهم وتدريبهم على الاعمال الحربية وفنون الحكم . وكان الملك يسمح لبعض أبناء رجال الحاشية وأبناء العائلات الكبيرة من شعبه بأن يقيموا فى القصر مع أبنائه الأمراء ليتلقوا دروس التعليم والتربية معهم ، حتى تتوطد علاقتهم بالأمراء ويكونوا فيما بعد خير أعوان لهم حين يتولى أحدهم العرش أو الوزارة أو أى منصب من المناصب الكبرى .

ولما كان يتعذر على الملك أن يشرف بنفسه على جميع شئون الدولة ، كان يعين له وزيرا يختاره من أبنائه أو من رجاله الأقربين اليه ، ليستعين به فى النهوض بأعباء الحكم . وكان الملك أحيانا يعين الكاهن الأعظم وزيرا له ، فيجمع بذلك بين أكبر منصب دينى وأكبر منصب ادارى فى البلاد . وكان الوزير هو التالى للملك فى سلطاته وأهم رجال الدولة فى مسئولياته ، اذ كان يقع على عاتقه الاشراف على كل الشئون الادارية والقضائية والدينية والمعمارية وغيرها من أعباء الدولة المتعددة . وكان يعاون الوزير فى عمله جهاز الحكومة الذى يتكون من رؤساء الادارات وعدد عظيم من الموظفين .

وكان بالوجه القبلى اثنان وعشرون مقاطعة ، وبالوجه البحرى عشرون مقاطعة ، وعلى رأس كل من هذه المقاطعات حاكم يخضع للحكومة المركزية وينفذ أوامرها . وكان الحاكم بمثابة نائب الملك فى ادارة المقاطعة ، فكان اللقب الذى يحمله هو « الأول بعد الملك » ، وكان هو الرئيس الأعلى للمقاطعة وقاضيها الأكبر والمشرف على جمع الضرائب من أهاليها ليرسلها فى مواعيدها الى العاصمة . وكان الوزير يبعث بكبار الموظفين الى المقاطعات ليرفعوا اليه تقاريرهم عنها ، فكانوا بذلك حلقة الاتصال بين الادارات المحلية والحكومة المركزية .

وقد توطد هذا النظام وبلغ درجة عظيمة من الدقة والرسوخ منذ القرن الثلاثين قبل الميلاد بفضل هيبة الفراعنة وحزم الوزراء وكفاءة الموظفين وأمانتهم .

وكانت أهم المدن فى عهد الدولة القديمة هى « الكـــاب » و « بوتو » وضاحيتاهما « نخب » و « نخن » • كما ارتفع شأن « طينة » و « أبيدوس » وهى العرابة المدفونة ، و « أون » وهى عين شمس ، و « صا الحجــر » أو « سايس » ، و « منف » ، و « اهناس » التى سماها اليونان « هيراكليـــو بوليس » •

وكان الجيش فى عهد الدولة القديمة يتكون من الفرق الحربية التابعة للمقاطعات ، فكانت كل مقاطعة تبادر حين تنشب الحرب الى ارسال فرقتها لتقاتل تحت قيادة فرعون • حتى اذا انتهت الحرب عادت الى مقاطعتها • بيد أن الحاجة لم تلبث أن دعت الى تكوين جيش دائم للحكومة المركزية ، يكون متأهبا على الدوام لصد كل عدوان على البلاد • ومن ثم أنشأ الملـــك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة هذا الجيش • وكان كل جنوده فى البداية من أبناء الشعب المصرى ، غير أن بعض الملوك أصبحوا بعد ذلك يستعينون فى تكوين الجيش ببعض النوبيين والليبيين • وكان ملوك الأسرة السادسة يمنحـــون الأراضى لأولئك الجنود الاجانب ويعفونهم من الضرائب تشجيعا لهم عـــلى الاستمرار فى خدمة الجيش المصرى •

كما كان لمصر فى عهد الدولة القديمة أسطول حربى يعمل به جنود من البحارة ، بقيادة ضابط عظيم كان يسمى قائد الأسطول •

وقد اهتم الملوك فى ذلك العهد باقامة الحصون والأسوار الضخمة عند الحدود لحماية البـــلاد من غارات الأعداء ولا سيما الأســيويين فى الشرق والليبيين فى الغرب ، والنوبيين فى الجنوب •

وكان المصريون فى ذلك العهد هم أول من نفخ فى البوق فى النـــداءات العسكرية ، وأول من دق على الطبل لتنظيم السير فى المناورات الحربيـــة بخطوات عسكرية واحدة ، وأول من ابتدأ السير فى الاستعراضات العسكرية بالساق اليسرى •

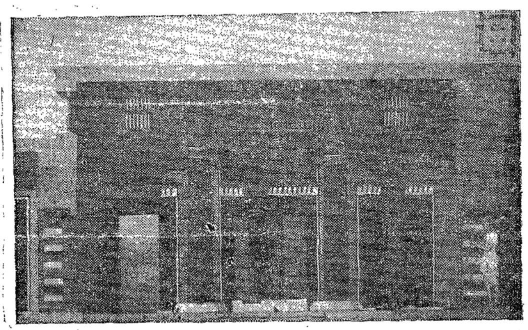
وكان ثمة ادارة خاصة تسمى « دار الأسلحة » هى المختصة بشـئون الجيش والمسئولة عن تدريبه وتجهيزه بالأسلحة وتموينه بالطعام ، وبنـاء سفن الأسطول واقامة القلاع والحصون ، وكل ما يتصل بذلك من شئون .

٣ ـ الحياة الاجتماعية

وكان المجتمع المصرى حين تم توحيد البلاد وتأسيس الدولة القديمة قد بلغ ذروة رفيعة من التقدم ، واستقر على أساس راسخ من التقاليد والمبادىء والآداب . وكانت الخلية الأولى فى هذا المجتمع وهى الأسرة قد اكتسبت منذ هذا العهد البعيد كل ما عرفته الأمم الراقية بعد ذلك فى أزهى العصور من خصائص الأسرة الفاضلة المتماسكة البنيان المتينة الكيان . فكان الزواج هو حجر الأساس فى المجتمع ، وكان الرجل يكتفى بزوجة واحدة ويرعاها ويحبها ويخلص لها ويعول أبناءه منها . وكانت المرأة تبادل زوجها الرعـاية والحب والاخلاص . وكانت داخل نطاق الأسرة هى سيدة البيت ، وكانت خارج هذا النطاق تتساوى مع الرجل فى كل الحقوق والواجبات ، ومن ثم كانت موضع التقدير والاحترام فى كل المجالات . وكان الأب يعطف على أبنائه ويهتم بتربيتهم وتعليمهم منذ نعومة أظفارهم ، كما كان الأبناء يحترمون آباهم احتراما شديدا ويخدمونه الى آخر حياته ، بل حتى بعد موته ، اذ يظلون يوافونه فى قبره بالاحتياجات اللازمة فى اعتقادهم لخلود روحه .

وكانت الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد قد استكملت كل مظاهر المدنية والحضارة : فكانت للملوك قصور عظيمة محاطة بالبساتين اليانعة ومفروشة بالرياش الرائعة ، وزاخرة بالأوانى البديعة المصنوعة من الخزف المصقول أو الأحجار المرمرية أو البلورية ، والأباريق الفضية أو النحاسية ، والصناديق المصنوعة من العاج أو الأبنوس ، والحلى التى بلغت درجة رفيعة من دقـة

الصياغة ورقة التكوين وروعة الفن . كما كان الامراء وكبار الموظفين والتجار - ولا سيما فى عصر الاقطاع الذى ظهرت أثناءه الطبقة الوسطى بعد سقوط الدولة القديمة - يملكون منازل واسعة الأرجاء كثيرة الأبهاء ، مزدانة الجدران بالرسوم الجميلة الزاهية الألوان ، وقد امتلأت بالأثاث الفخم والأبسطة الفاخرة وحوت كل وسائل النعيم . وكان الموسرون من الرجال يضعون على



« واجهة منزل من منازل قدماء المصريين »

رؤوسهم قلانس من الشعر المستعار المفروق فى وسطه ويتحلون بقلائد ذهبية مرصعة بالجواهر الكريمة . وكانت النساء تتحلى بالعقود والأقراط والأساور والأطواق المصنوعة من الذهب أو الفضة .

أما منازل الفقراء فكانت متواضعة مشيدة باللبن ، وكانت حياتهم بسيطة وحاجياتهم قليلة ، ولكنهم كانوا قوما فاضلين ، تملأ قلوبهم التقوى ، وتدرأ القناعة عنهم أسباب التعاسة وتفتح لنفوسهم أبواب السكينة والسلام .

٤ ـــ العقائد الدينية

وما من أمة فى العالم القديم تأصل الدين فى وجدانها وتغلغل فى كيانها وامتزج بكل مظاهر مدنيتها امتزاجا قويا عميقا ، كالأمة المصرية • فقد كان الدين هو جوهر حياتها ، ومصدر حيويتها ، وأكبر حافز لكل ما نشأ فيها من آداب وعلوم وفنون •

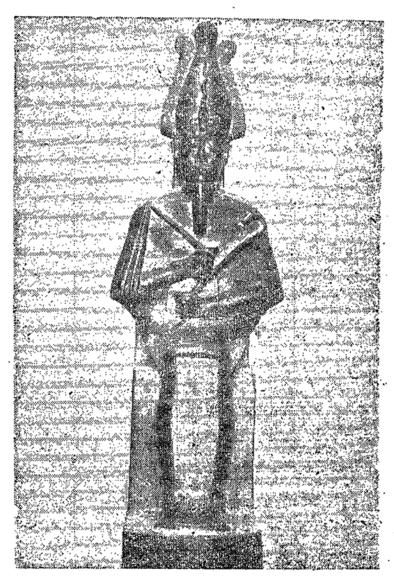
وقد عرف المصريون الله وعبدوه قبل العصور التاريخية بزمن سحيق ، منذ أن كانوا قبائل متفرقة في الوادى • بيد أن كل قبيلة عرفت الله بصورة تلائم طبيعة عقليتها وبيئتها ، وأعطته اسما يتفق مع مدلولات لغتها ولهجتها • فلما تكونت القرية ثم المدينة بعد ذلك ، أصبحت كل منها تعبد الله كذلك في صورة معينة وتعطيه اسما خاصا ، حتى اذا اتحدت القرى والمدن فى مقاطعات، ثم اتحدت المقاطعات في دولة واحدة ، احتفظ المصريون بكل صور الله وأسمائه القديمة ، وحافظوا عليها كما تلقوها من أسلافهم • بيد أنه حين كان يرتفع شأن مدينة من المدن كان يبرز الاسم الذى عرفت به الله على سائر أسمائه في الجهات الأخرى • كما أن الكهنة عملوا ــ لأغراض سياسية أو اجتماعية أو شخصية ــ على تقديم بعض هذه الأسماء على البعض الآخر ، وابتكار صفات متميزة يلصقونها بكل منها لتكون أساسا للتمييز والتفضيل ، حتى بدت كأنها ليست أسماء الله الواحد ، بل أسماء آلهة عديدين ، وعلى هذا الاعتبار بدأت كل فئة من أولئك الكهنة فى مختلف أنحاء البلاد تدعو لالهها وترفعه فوق غيره من الآلهة ، أو يعمد كهنة كل فئة الى تشكيل مجموعات من الآلهة مبتدعين لأفراد كل مجموعة منها صلة من التبعية أو القربى ، حسب الصفات التى يلصقونها بها • وكانت بعض هذه المجموعات تتكون من ثلاثة آلهة وتسمى « الثالوث الالهى » ، أو تتكون من تسعة آلهة وتسمى « التاسوع الالهى » ، وعلى رأس كل ثالوث أو تاسوع منها يضعون الاله الذى يؤيدونه ويريدون له

الرفعة والنفوذ ، وهكذا عمل الكهنة على تعقيد الديانة المصرية وتجريدها من بساطتها الأولى وما كانت تنطوى عليه من الايمان بالله الواحد ايمانا نقيـــا ، نابعا من الشعور والوجدان • وقد نجم عن ذلك قيام التنافس والتنازع بين كهنة الآلهة العديدين ، فاتسع نطاق عبادة بعض هؤلاء الآلهة حتى شمل فى بعض الأحيان القطر كله ، بينما انحصرت عبادة بعضهم الآخر فى مدينته أو قريته لا يتجاوزها •

وكان الاله الذى يتمتع بأكبر نفوذ بين الآلهة وتنتشر عبادته فى القطر كله عند توحيد البلاد على يد مينا هو « حوريس » • وقد ظهر هذا الاله منذ بداية الأسرة الأولى بوصفه الاله الرسمى للدولة • وكان ملوك الدولة القديمة يقرنون أسماءهم باسمه ، بيد أن أحد ملوك الأسرة الثانيـــة وهو الملـــك « بر ابسن » تمرد ــ كما سبق أن رأينا ــ على « حوريس » واتخذ لدولته الها آخر كان المصريون يعتبرونه عدوا لحوريس وهو الاله « ست » • ثم قام بعد ذلك الملك « خع سخموى » آخر ملوك الأسرة الثانية فجمع بين الالهين المتعاديين واتخذهما معبودين لدولته • الا أن ذلك لم يستمر طويلا ، فما انتهت الأسرة الثانية حتى أصبح حوريس منذ بداية الأسرة الثالثة هو الاله الأوحد للدولة، وقد ظل موضع احترام المصريين طوال التاريخ المصرى القديم •

كذلك لعب الاله أوزوريس دورا خاصـــا بين الآلهة المصرية فى ذلك الحين • وكان ثمة أسطورة يتناقلها المصريون عنه ، ومؤداها أنه كان ملكـــا فاضلا محبوبا فحقد عليه أخوه الشرير « ست » وطمع فى اغتصاب عرشه ومن ثم قتله ومزق جثته وبعثرها فى كل أنحاء الوادى ، فراحت ايزيس زوجة أوزوريس تجمع أشلاء زوجها وقرأت عليها من الأدعية والابتهالات ما أعـــاد الحياة اليها ، ولكن أوزوريس رفض البقاء فى الدنيا وصعد الى السماء حيث أصبح رئيسا للمحكمة التى تحاسب الأموات فى الآخرة على ما فعلـــوا فى دنياهم من حسنات وسيئات • وكان لأوزوريس ولد من زوجته ايزيس وهو

حوريس ، فما اشتد عوده حتى قام وانتقم لأبيه من قاتله واسترد العرش منه . وقد كان لهذه الأسطورة لدى قدماء المصريين فى كل العصور أثر بالغ وتأثير عظيم .



« الآله أوزوريس »

وحين ظهرت « منف » ارتفع شأن الهها المحلى بتاح ، وقد احتل هـــذا الاله منذ ذلك الحين مكانة مرموقة بين الآلهة فى كل عصور مصر القديمة .

ثم حين استولى « أوسر كاف » على العرش وأسس الأسرة الخامسة بعد أن

كان كبيرا لكهنة الاله « رع » معبود عين شمس ، ارتفعت مكانة هذا الاله ، وأصبح ملوك الأسرة الخامسة يعتبرون أنفسهم أبناء « رع » وقرنوا اسمهم باسمه •



« الالهة ايزيس »

حتى اذا تفككت الحكومة المركزية بعد انهيار الدولة القديمة ، لم يعد هناك اله رسمي للدولة • وأخذ كل اله من آلهة المقاطعات يظهر في مقاطعته وقد استعاد نفوذه القديم •

وهكذا نجد أن أبرز الآلهة في عهد الدولة القديمة هم « حـــوريس » و « أوزوريس » و « ست » و « بتاح » و « رع » ، كما كان من الآلهة التي

تألقت أسماؤها فى ذلك العهد « أنوبيس » و « تحوت » و « سوكار » و« سبك» و « مين » و « أبيس » و « خنم » و « حاتحور » و « سخمت » و « نيت » • وقد بقيت منزلة هؤلاء الآلهة شامخة فى نفوس المصريين فى العصور التالية •

وكان المصريون منذ بداية ذلك العهد يؤمنون بخلود الروح ويعتقدون أن الانسان بعد انتهاء حياته فى دار الفناء سيعود الى الحياة مرة أخرى فى دار البقاء ، ولذلك حرصوا على تحنيط جثث موتاهم ، وحفظها فى قبـــور محصنة ، حتى اذا عادت الروح اليها يوم البعث وجدتها سليمة لم يتطرق اليها الفساد أو الفناء • وهذا هو السر فى بناء تلك الأهرامات الضخمة التى أقامها ملوك الدولة القديمة لتثوى فيها أجسادهم بعد الموت •

كما كان المصريون فى ذلك العهد يعتقدون أن الانسان يقف بعد موته أمام محكمة أوزوريس ليؤدى حسابا عما أتى فى حياته الدنيا من حسنات أو سيئات ، فان كان ممن عملوا الصالحات دخل النعيم ، وان كان ممن عملوا السيئات دخل الجحيم •

وقد اهتم المصريون فى ذلك العهد باقامة المعابد العظيمة ليقدموا فيها لآلهتهم فروض العبادة والولاء • وكان المعبد حينذاك يتكون من فناء مكشوف يتوسطه مذبح كبير وتليه ساحة ذات أعمدة تتفرع منها عدة حجرات لحفظ الأثاث والأدوات اللازمة للطقوس • وكانت الحجرة الوسطى الأمامية تسمى « قدس الأقداس » • ومن أقدم المعابد التى تم بناؤها فى عهد الدولة القديمة معبد الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، وهو أول معبد استخدم المصريون الحجر فى بنائه • وكذلك معبد أبى الهول الذى أقامه الملك خفرع وهو بناء ضخم من الطراز الخاص بالأسرة الرابعة ، وقد بنى بالحجر الأبيض وكسيت جدرانه بكتل من الجرانيت الأحمر المصقول ،كما كسيت ردهته بأحجار المرمر الجميل • وقد شيد فراعنة الأسرة الخامسة معابد كثيرة للاله رع ، ومنها

المعبد الذى أقامه الملك « نواسر رع » في بوصير على بعد عشرة أميال من جنوبى أهرام الجيزة ، وكان مدخله عبارة عن باب ضخم يؤدى الى بهو عظيم مكشوف ترتفع فى وسطه مسلة شاهقة ، على قاعدة هائلة من كتل الجرانيت الأحمر، وينتصب أمامها مذبح كبير مشيد بكتل ضخمة من المرمر • وعلى يسار البهو يمتد ممر مسقوف ينتهى بغرف ذخائر المعبد ، التى كانت مخصصة لحفظ أوانى التعبد وغيرها من الأشياء الثمينة ، وعلى يمينه يمتد ممر آخر يحاذى الجدار الجنوبى ثم ينعطف الى الشمال ، حتى اذا التقى بقاعدة المسلة انحنى على شكل سلم حلزونى يؤدى الى سطح مسقوف • وكان عند أقدام المسلة معبد صغير مزين بنقوش بارزة دقيقة الصنع تمثل الاحتفالات المختلفة التى كانت تقام فى أعياد الملك • ويختلف هذا الهيكل فى طرازه عن كل المعابد الأخرى ، اذ لا يحتوى على أى تمثال من تماثيل الآلهة ، أو أى ناووس أو محراب للتعبد ، لأنهم كانوا يعتقدون أن إله ذلك المعبد وهو « رع » لا يقيم فى الارض ، وانما مقره فى السماء •

وكان لكل معبد كهنة يقومون بخدمته وأداء الطقوس اللازمة للاله الذى أقيم لعبادته • وكان فرعون هو الكاهن الأكبر لكل الآلهة • وكان له فى كل معبد نائب يدعى رئيس الكهنة •

٥ — الحياة الثقافية

وقد توصل المصريون الى ابتكار الحروف الهجائية وعرفوا الكتابة منذ عصورهم الأولى وكانوا يسمونها « الهيروغليفية » ، أى الاشارات المقدسة ، نظرا لما كان لها فى نفوسهم من احترام وتقديس • وقد استخدموها فى تسجيل أخبارهم وتصوير مشاعرهم والتعبير عن أفكارهم وعقائدهم • ولصعوبة

الكتابة الهيروغليفية ابتدع المصريون فى أوائل عهد الدولة القديمة نوعا آخر من الكتابة يسمونه « الهيراطيقية » • وكان مما ساعد على انتشار الكتابة لديهم أنهم استخدموا منذ أقدم العصور نوعا من الورق اتخذوه من نبات البردى ، كما استخدموا نوعا من المداد يغمسون فيه أقلاما من الغاب • وبذلك اكتملت لهم وسائل الكتابة فكانت هى السبيل الى ما عرفته مصر ، بل عرفه العالم كله بعد ذلك من مدنية وحضارة •

وقد اهتم المصريون بتعليم أبنائهم الكتابة والقراءة واعتبروا ذلك شرفا عظيما يتطلعون اليه ويسعون الى الاستزادة منه ، كما اعتبروه شرطا لتولى الوظائف العامة • ومن ثم أنشأوا المدارس وكانوا يلحقون بها أبناءهم منذ طفولتهم الأولى ، ليتلقوا العلم ويشقوا طريقهم بعد ذلك الى المناصب الرفيعة والمهن الراقية كالطب والهندسة والكهنوت •

وقد أدى التعليم الى انتشار الثقافة وظهور الآداب • ورغم قلة النصوص الأدبية التى وصلت الينا من عهد الدولة القديمة ، فانها كافية للدلالة على ما بلغته الروح الأدبية لدى المصريين فى ذلك العهد من ارتقاء وازدهار ، ومنها يتضح أن الأدب يومئذ كان يتجه الى الواقعية ويخلو من عناصر الافتعال والاصطناع ، ويعبر عن أفكار الناس ومشاعرهم فى بساطة وصدق ، ويبشر بالفضيلة والعدالة والتقوى والمثل العليا • وكان يغلب على الأدب أسلوب الحكمة والنصيحة والموعظة • ومن أبرز أدبائهم فى هذا المجال « بتاح حوتب » الذى ظهر فى عهد الأسرة الخامسة واشتهر بالحكمة والبلاغة ، حتى ارتفعت به شهرته ومقدرته الى منصب الوزارة ، وقد وضع سفرا من أروع الأسفار الأدبية فى التاريخ القديم كله ، يوجه فيه النصائح والتعاليم الى ابنه فيدعوه الى الجد والاستقامة وتقديس الواجب ، ويحثه على الطاعة والتواضع وطلب العلم والاستمساك بمكارم الأخلاق وآداب السلوك والتحلى بالصدق والأمانة والعفة والعطف على الصغير واحترام الكبير •

بيد أن أغلب آداب هذا العصر قد اصطبغت بالصبغة الدينية • ويتجلى ذلك على الخصوص فى الأناشيد التى كانوا يترنمون بها فى معابدهم ، وفى الكتابات المنقوشة على جدران أهراماتهم ولا سيما هرم أوناس وأهرام ملوك الأسرة السادسة فى سقارة ، وهى التى عرفناها بمتون الأهرام ، واستقينا منها أغلب معلوماتنا عن عقائد قدماء المصريين فى عهد الدولة القديمة •

كذلك توجد بعض القصص التى نقشها الملوك والأمراء وحكام المقاطعات على مقابرهم ، وقد وصفوا فيها كثيرا مما وقع لهم فى حياتهم من أحداث ، وما أتوه من أعمال ، وما نالوه من مجد •

كما ذاعت فى ذلك العصر الأغانى الشعبية التى كان يترنم بها الناس فى أعيادهم وأفراحهم وأوقات مرحهم ، كما كان يتغنى بها الزارع فى حقله والصانع فى مصنعه وكل ذى عمل أثناء تأدية عمله ، ومن أشهرها أغنية الراعى يناجى بها غنمه ، وأغنية حاملى المحفة ، يعبرون فيها لسيدهم عن سرورهم بحمله • وكانت تلك الأغانى تزخر بالعبارات الشعرية والمعانى الرقيقة •

٦ ـ الفنون

وقد ظهرت الروح الفنية لدى المصريين منذ العصر السابق على التاريخ • وقد بقيت لنا من آثار ذلك العصر نماذج من الأوانى والأدوات المصنوعة من الفخار أو الأحجار تمتاز بقدر كبير من الدقة والرقة والجمال • بيد أن الفن المصرى لم يظهر بصورته المتميزة وطابعه الخالد الا فى عهد الدولة القديمة • وقد تحددت أصوله وقواعده منذ بداية ذلك العهد •

وقد ازدهرت العمارة حينذاك بعد أن استفادت كثيرا من التجارب الناجحة فى عصورها السابقة ، فما فتئت تتطور من استخدام النبات فى

العمارة الى استخدام اللبن . ثم الى استخدام الأحجار ، مع تدرج وتقدم ملحوظ فى الاستعانة بالنقش والنحت والزخرفة . وقد بدأ المهندسون المصريون فى بداية عهد الدولة القديمة يستخدمون الأحجار فى رصف أرضيات المقابر وبناء جدرانها الداخلية ، واقامة نصبها التذكارية ، ثم استخدموها فى تشييد واجهات المعابد ، ولم تلبث العمارة الحجرية أن شهدت طفرة جريئة فى بداية عهد الأسرة الثالثة على يدى المهندس المصرى الشهير « ايمحوتب » ، الذى كان فى ذات الوقت كبيرا لكهنة عين شمس وقديرا فى الطب والحكمة والادارة ، وقد أشرف على بناء مقبرة زوسر وتوابعها فى سقارة ، فاستخدم الحجر لأول مرة فى التاريخ على أوسع نطاق ، وبدلا من أن يجعل المقبرة على شكل مصطبة كما كان يجرى بناء المقابر من قبل جعلها على شكل هرم ذى ست درجات يعلو بعضها بعضا ، ويبلغ ارتفاعها ستين مترا . وقد أحاط الهرم بمجموعة معمارية كبيرة تشغل أربعين فدانا وأقام حولها سورا ضخما يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار ويبلغ سمكه فى بعض المواضع نحو ستة أمتار . وقد استخدم « ايمحوتب » فى بناء العمائر المحيطة بالهرم وزخرفتها ، عبقريته الفنية التى لا مثيل لها ، فأقام بها أعمدة ذات أضلاع متجاورة محدبة على هيئة مجموعات محزومة من سيقان الغاب التى كان أسلافه يستخدمونها لرفع سقوف المبانى . كما أقام أعمدة على هيئة سيقان البردى بأوراقها وتيجانها ، وأعمدة تشبه جذوع الأشجار المشذبة . وقد نحت الأبواب الحجرية على هيئة الأبواب الخشبية ، كما نحت السطوح الداخلية للسقوف على هيئة فلوق النخيل ذات المقاطع المستديرة . وشيد حجرة الدفن بأحجار جرانيتية ضخمة وكسى جدران الحجرات المتفرعة عنها بقطع صغيرة محدبة من القيشانى المتعدد الألوان بحيث بدت كأنها بساط من النسيج المجدول الفاخر الذى كان سراة المصريين يزينون به أبهاء قصورهم .

وقد استمر تقدم العمارة الحجرية بعد ذلك واكتساؤها بروح الفن فى

أهرام الأسرة الرابعة ومعابدها فى الجيزة ودهشور ، ثم فى معابد الأسرة الخامسة فى سقارة وأبى صير ، وقد ساعد على نهضتها وفرة الأحجار فى الهضاب المصرية وكثرة أنواعها وتعدد ألوانها ، فثمة الحجر الأبيض والجرانيت الأحمر والبازلت الأسمر والشست الأخضر والديوريت الأزرق والبروفير الأرجوانى ، وغير ذلك من أنواع الأحجار الرملية والجيرية والصوانية ذات الصلابة المتفاوتة الدرجات . وقد اختار المصريون منها ما يناسب أغراضهم واقتطعوها بأحجام كبيرة لم يشهد العالم القديم لها مثيلا . كما ترتب على مركزية الحكم فى ذلك العصر توافر الامكانيات والقدرة على استغلال الموارد واستخدام المجموعات الضخمة من العمال والصناع لقطع الأحجار ونقلها واستخراج المعادن واعدادها وتوفير الأساطيل النهرية لنقل الكتل الحجرية الهائلة من أقصى القطر الى أقصاه وتشجيع المهندسين والفنانين بالجزاء الوافى ، وتنشيط التجارة الخارجية لتعويض البلاد عما ينقصها من الأخشاب الصلبة . وقد عاون على ذلك نظام الزراعة فى مصر القديمة ، اذ كان يقتصر على دورة زراعية واحدة ، فكان العمال الزراعيون يظلون بغير عمل طوال شهور عديدة فى كل عام ، ومن ثم كانت المشاريع العمرانية وما تدره عليهم من الرزق خير تعويض لهم فى شهور بطالتهم . كما كان للعقائد الدينية لدى المصريين دخل كبير فى تنشيط العمارة ، اذ دفعت بهم الى الاهتمام بتشييد المعابد الضخمة لآلهتهم ، كما دفعت بهم الى الاهتمام بتشييد المقابر الفخمة لأنفسهم . أما منازلهم فقد استحبوا فيها روح البهجة والمرح فزخرفوها بالرسوم الجميلة والألوان الزاهية ، مستعينين فى ذلك بمناظر بيئتهم الرائعة ذات البساتين اليانعة والأشجار الفارعة والزهور البديعة والطيور السارحة فى الفضاء والأسماك السابحة فى الماء والنجوم المتلألئة فى السماء .

وقد تقدم فن النحت فى عهد الدولة القديمة تقدما عظيما ، وبلغ درجة من المهارة والقدرة الفنية لا نظير لها فى كل عصور مصر السابقة واللاحقة .

وقد بقيت لنـــا من ذلك العهد مجموعة من التماثيل يندر أن يكـــون لها مثيل • وقد كان المثالون فى تلك الأيام يبذلون كل ما فى وســعهم ليجعلوا تماثيلهم مطابقة للأصل ومشابهة لأصحابها كل المشابهة فى الشكل والقوام والتقاطيع حتى تهتدى أرواحهم بواسطتها الى أجسادهم يوم القيامة ، كمـــا كانوا يعتقدون • ولذلك صبغوا تلك التماثيل بالألوان الطبيعيـــة وصنعوا أعينها من الحجر البلورى ، وبرعوا فى بث الحركة فى ملامحها حتى لتبـدو وكأنها تنبض بالحيـــاة • ومع ذلك اختاروا لنحتهـــا أصلب أنواع الحجر كالجرانيت والبازلت والمرمر ، كى تبقى على الزمن وترمز للخلود • كما أنهم صنعوا التماثيل البديعة من الذهب والخشب والنحاس المطروق ، فكانوا فى كل ذلك أساتذة للعالم أجمع •

ومن أروع التماثيل التى بقيت لنا من عهد الدولة القديمة تمثال الملك خفرع ، الذى تتجلى فيه عظمة فرعون وجلاله • وتمثال شيخ البلد الذى تراه فيخيل اليك من فرط دقته وحيويته أنه مقبل نحوك وعصاه فى يده ، مـــع أنه مصنوع من الخشب • وتمثـــال الأميرة نوفرت ، الذى تنطق ســماته بالجمال ونبل المحتد ، وقد ازدان رأسها بالشعر المصفف الفاحم السواد ، والتف جسمها فى حشمة بثوب ناصع البياض وأحاطت بعنقها قلادة رائعة من الأحجار الكريمة • وتمثال الكاتب المتربع وقد اتخـــذ هيئة الشخص الذى تأهب للكتابة فقعـــد القرفصاء وأمسك القـــلم فى يده وأســند الورق الى ركبتيه ، فلا يسعك اذ تراه الا أن تحس بأنه سيشرع فى الـكتابة فعــلا • وتمثال الملك « بيبى الأول » وهو أكبر تمثال معدنى فى تاريخ مصر ، وقد صيغت رأسه ويداه وقدماه من البرونز المسبوك ، وأما بقيـــة جسمه فمن الخشب المغلف بالنحاس •

كذلك تقدمت فى عهد الدولة القديمة فنون الحفر والنقش والرسم • وقد استطاع المصريون بتلك الفنون أن يحاكوا الطبيعة أبرع محاكاة • وقد

رسموا سقوف منازلهم بهيئة السماء المزدانة بالنجوم ، ورسموا أرضياتهـــا بهيئة البحيرات الزاخرة بالأســـماك ، وزينوا جـــدرانها برســـوم الأزهار



« تمثال شيخ البلد »

والفراشات الطائرة بين الأشجار ، وجعلوا أرجل مقاعدهم وأرائكهم على هيئة أقدام الأسود أو الوعول ، وأكلوا في صـحاف تشبه قواقع البحر ، وشربوا

فى أقداح تشبه براعم اللوتس • وقد أثارت رسومهم دهشة العالم كله فقال شارل بيرو « لا يسعنا الا أن نعترف بأن فنانى الدولة القديمة أبدعوا رسوما تفوق أبرع رسوم أوروبا الحديثة » • ومن أروع الآثار الفنية فى ذلك العهد ما تزخر به جدران مقابر الأسرتين الخامسة والسادسة من نقوش بارزة ورسوم بديعة ، ولا سيما مقبرة الأمير « بتاح حوتب » فى سقارة ، وهى تعتبر سجلا مصورا لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية حينذاك ، وقد بدا فيها الزارع وهو يزرع ، والصانع وهو يصنع ، والراعى وهو يرعى ماشيته ، وربة البيت وهى تؤدى أعمال بيتها • كما تتجلى روعة النقش ودقته البالغة على جدران الطريق المؤدى الى معبد أوناس ، وقد امتلأت بالمناظر التى تمثل الملك يحارب الأعداء ، وجنوده يتبعونه وحرابهم فى أيديهم ، كما تمثل النيل وما فيه من أسماك ، والحقول وما بها من نبات ، والأشجار وما عليها من طير ، والصحراء وما تزخر به من حيوان ، وتكشف هذه المناظر البارزة عن الحذق فى رسم التفاصيل الدقيقة للأجسام ، والذوق فى اختيار الألوان وتوزيعها فى تدرج وانسجام ، حتى تكاد الرسوم أن تنبض بالحركة والحيوية والحياة •

وكان من الفنون التى عرفها المصريون فى ذلك العهد كذلك الموسيقى • وكانوا يستخدمونها فى المعابد للترنيم والتسبيح ، كما كانوا يستخدمونها فى قصور الملوك والأمراء والموسرين للترويح عن النفس • وكانت أبرز آلاتها لديهم القيثارة والأرغن • وكان للموسيقى المصرية طابع معين يميزها ، وقد احتفظت به فى كل عصورها • وكان الغالب أن يصحب العزف الغناء •

٧ ــ العلوم

ويمتاز عهد الدولة القديمة بارتقاء العلوم ولا سيما الفلك والرياضيات والطب •

وقد مارس المصريون دراسة الفلك منذ عصور سحيقة قبل بداية الدولة القديمة ، حتى لقد توصلوا الى وضع التقويم وابتداع الوحدات الزمنيـة التى تشمل السنين والشهور والأسابيع قبل توحيد البلاد بأكثر من ألف عام . وقد رسموا السماء وعرفوا أهم نجومها وابتكروا آلات دقيقة لتحديد مراكز النجوم ، وتمكنوا من رصد الكثير منها .

كما برع المصريون فى ذلك العهد فى الرياضيات ، وهى الحساب والجبر والهندسة ، فقد عرفوا الأرقام الحسابية ، واستخدموها فى مسائل الجمـع والطرح والضرب والقسمة ، واتخذوا مقاييس يقيسون بها أراضيهم ، وموازين يزنون بها حاجياتهم ، ومكاييل يحددون بها مقادير السوائل والحبوب . كما عرفوا مبادىء الجبر ، ونبغوا فى الهندسة ، ويدل على تفوقهم فيها ما أقاموه من مبان ضخمة كالأهرام والمعابد والسدود الهائلة التى تشهد لهم بالتفوق العظيم والعبقرية المنقطعة النظير .

وكذلك برع المصريون فى ذلك العهد فى الطب ، وكان لديهم أطبـاء ممتازون فى علاج الأمراض الباطنية وأمراض العيون والأسنان والعظام ، كما نبغوا فى الجراحة والتشريح ، وكانت لهم دراية عظيمة بالأدوية والعقاقير . وقد دونوا علومهم الطبية فى أوراق البردى فانتقلت منهم الى اليونان ثم الى سائر دول أوروبا . ومن المعروف أن الملك « سر » أحد ملوك الأسرة الأولى كتب سفرا فى علم التشريح . بيد أن أشهر الأطباء المصريين هو « أمحوتب » وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وقد أنزله المصريون فى أواخر العصر الفرعونى منزلة الاله ، ووصلت أخباره الى اليـونان فاعتبـروه اله الطب عندهم .

ويتصل ببراعة المصريين فى الطب والعلوم الكيماوية براعتهم فى فن التحنيط الذى أتقنوه منذ بداية عصورهم وظل حتى اليـوم سرا من الأسرار الرائعة التى تحيط قدماء المصريين بهالة من المجد والجلال .

٨ ـــ الحياه الاقتصادية

وقد توطدت الحياة الاقتصادية فى مصر منذ بداية عهد الدوله القديمة، فانتظمت الزراعة ، وارتقت الصناعة ، واتسع نطاق التجارة ٠

وكانت الزراعة هى أهم موارد البلاد ، فلم يكن الاستقرار السياسى والنهضة الاجتماعية اللذين شهدتهما مصر فى ذلك العهد الا نتيجة لوفرة المحصولات الزراعية التى كانت تجود بها تربة وادى النيل ، وعناية ملوك الدولة القديمة بتنظيم وسائل الرى ، وما اتصف به الفلاح المصرى من كفاية ومثابرة ٠

وكانت النظرية السائدة أن الملك باعتباره رأس الدولة هو المالك لكل أراضى البلاد وصاحب الحق المطلق فى التصرف فيها ٠ وكان الفلاحون يقومون بزراعتها نظير جزء من المحصول ٠ وأما الباقى فيقومون بتوريده الى خزائن الحكومة كل عام ٠

وكانت طرق الزراعة وآلاتها فى ذلك العهد هى ذات الطرق والآلات التى ما زال المصريون يستخدمونها حتى اليوم ، كما كانت أهم المزروعات حينذاك هى التى ما زالوا يزرعونها ولا سيما القمح والشعير والبقول والكروم والكتان ٠

وقد تقدمت الصناعة فى عهد الدولة القديمة ، فأظهر المصريون مهارة فائقة فى صنع الأوانى والأدوات من الأحجار ولا سيما الصلبة منها كالمرمر والجرانيت والصوان والأحجار البلورية والملاشيت والفيروز واللازورد ٠ واستخرجوا المعادن ولا سيما الذهب والفضة والنحاس والحديد ، وصنعوا منها كثيرا من حاجياتهم ولوازم حياتهم ٠ وبرعوا فى الصناعات الخشبية ولا

سيما السفن الصغيرة والكبيرة وأثاث المعابد والمنازل ، وكانوا يجلبـــون الأنواع الجيدة من الخشب من ساحل فينيقيا . كما أنهم استخدموا العـاج والأبنوس فى صناعة الأثاث الفاخر . وكانوا يصنعون من الخزف آنية بديعة لامعة متعددة الألوان ، ويطلون بعضها بالزجاج . وأتقنوا صناعة الجلـــود فدبغوها بمهارة وصبغوها بمختلف الألوان وصنعوا منها أغطيـــة المقـــاعد والمضاجع والوسائد والستائر والمظلات . وبلغت المنسوجات التى صنعوها من الكتان غاية الدقة والرقة حتى ليصعب تمييزها من المنسوجات الحريرية . وصنعوا الورق من البردى واستخدموه فى الكتابة على نطاق واسع فكان من أكبر الدعامات لحضارة بلادهم . وكان لكل صناعة طائفة تتخصص فيهـــا وتتوارثها . ولا زالت آثار الدولة القديمة شـاهدة على ما بلغه المصريون من براعة فى الصناعات على اختلاف أنواعها ، وما حققوه من تقدم فى هذا المضمار منذ ذلك الزمن البعيد .

وقد راجت التجارة فى مصر فى عهد الدولة القديمة . وكان المصريون فى ذلك العهد يتبادلون الحاصلات المحلية بطريق المقايضة . أما الســـلع الثمينة فكانوا يبادلونها بحلقات ذات وزن معين من الذهب أو الفضة ، وتعتبر هذه أقدم عملة معروفة فى التاريخ . وقد تقدموا فى المعاملات التجارية فعرفوا المقاييس والمكاييل والموازين كما عرفوا العقود والايصـــالات والســـجلات والحسابات ومسك الدفاتر . وكانت الحكومة تشرف اشرافا تاما على نظام التعامل فى الأسواق وتهتم بادارتها واستقامة الأمر فيها مراعاة لمصـــالح الأهالى وحمايتهم من التلاعب والغش والاستغلال . كما اهتمت الحكومة ببناء سفن كبيرة تجرى فى النيل لنقل البضائع وتبادلها بين مختلف الجهات فى القطر .

ولم يقتصر نشاط المصريين فى ذلك العهد على التجارة الداخلية ، بل تطلعوا الى المتاجرة مع البلاد المحيطة بمصر ، فكانت أساطيلهم التجـــارية

لا تفتأ تجوب البحرين الأبيض والأحمر حتى وصلت الى المحيط الهندي جنوبا وبحر ايجة شمالا ، حاملة مختلف الحاصلات والمنتجات المصرية الى فينيقيا ورودس وقبرص وكريت والصومال وغيرها من الشواطىء والجزر والبلاد المتاخمة لها . كما كانت قوافلهم التجارية لا تفتأ رائحة غادية بين مصر وبلاد آسيا وافريقيا عن طريق شبه جزيرة سينا شمالا ووادى النيل جنوبا . وقد رأينا كيف أرسل الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة أسطولا من أربعين سفينة الى ساحل فينيقيا فأتت منه بحمولة ضخمة من أجود أنواع الخشب . وكيف توالت البعثات الى الصومال وغيرها من بلاد أفريقيا بقيادة « حرخوف» وكذلك « سابنى » و » مخو » وغيرهم . وكانت الصخور تعترض مجرى النيل عند الشلال الأول وتعوق الملاحة فقام مرنرع أحد ملوك الأسرة الخامسة بحفر خمس قنوات خلال هذه الصخور لتيسير سبل التجارة والتوغل فى أفريقيا . وقد جلب المصريون من السودان الذهب والأبنوس والعاج والجلود وريش النعام ، ومن الصومال المر والبخور والزيوت العطرية والأخشاب ذات الرائحة الذكية . ومن سينا المعادن ولا سيما النحاس وبعض الأحجار الكريمة . وكانت القوافل التجارية تصل الى مصر من بلاد النهرين وخليج البصرة حاملة مختلف الحاصلات والمنتجات ولا سيما الجلود والمنسوجات الصوفية والزيت ، وقد اهتم الفراعنة بالطرق الموصلة الى فلسطين وسوريا والعراق ، وحفروا فيها الآبار وعملوا على تأمين القوافل التجارية التى تمر بتلك الطرق وحمايتها من قاطعى الطريق الذين كانوا لا يفتأون يهددون سلامتها .

وكانت تحيط بمصر فى عهد الدولة القديمة وما تلاه من العهود كثير من الشعوب التى عاصرت قدماء المصريين فى مراحل تاريخهم المختلفة : ففى الشمال كان ثمة الشعوب القاطنة فى سواحل البحر الأبيض المتوسط وجزره ولا سيما قبرص ورودس وكريت . وفى الجنوب كان ثمة النوبيون ، وهم من الشعوب الأفريقية التى عرفها المصريون منذ أقدم العصور . وفى الغرب

كان ثمة الليبيون ، وكانوا خليطا من شعوب شمال افريقيا وبعض الشعوب النازحة من أوروبا • أما البلاد التى تتاخم مصر من جهة الشرق فكانت تزخر بعدد كبير من الشعوب التى نزحت فى مختلف الأزمان من مختلف الجهات واستوطنت سواحل الشام وما بين الدجلة والفرات • ومن أقدم تلك الشعوب قوم عرفوا بالسومريين وقد نزحوا من شـــمال آسيا ولا سيما بلاد القفقاس منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد ، وأسسوا فى بلاد ما بين النهرين حضارة من أقدم الحضارات فى العالم ، وكانت عاصمتهم مدينـــة « أور » • ثم نزحت طوائف من الشعوب السامية من جنوب غربى آسيا الى مختلف أنحاء الشرق الأوسط ومنها طائفة الأكاديين التى غزت بلاد السومريين وأخضعت الشام فامتدت مملكتها حتى ساحل البحـــر الأبيض المتوسط ، وكانت عاصمتهـــا « أكاديا » بالقرب من مدينة بغداد الحالية • ومن تلك الطوائف كذلك طائفة الأموريين التى استقرت فى سوريا والعراق منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد واستولت على أكاديا وأقامت هناك حضارة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم • ثم جاءت طائفة الكنعانيين فاستقرت فى فلسطين وأنشأت فيها المدن وأسست الحكومات وبلغت درجة عظيمة من الرقى فى الزراعة والصناعة والتجارة • واستقر جماعة من الكنعانيين فى الجزء الأوسط من ساحل الشام — وهو الذى نسميه اليوم لبنان — وكونوا شعبا يعرف بالفينيقيين ، وأنشأوا كثيرا من المدن الزاهرة ومنها بيروت وصور وصيدا • وقد حالت الجبال التى ترتفع فى محاذاة الساحل دون توسعهم فى الداخل فركبوا البحر وأخضعوا قبرص ووصلوا فى رحلاتهم الى أسبانيا وانجلترا ، وأسسوا مستعمرات تجـارية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ولا سيما قرطاجنة فى شمال أفريقيا • وكان لهم فى مدينة منف بمصر حى كامل يسمى « حى الصوريين » نسبة الى « صور » عاصمة بلادهم • وقد اقتبس الفينيقيون عـــن المصريين حروفهم الهيروغليفية ونقلوها الى الدول التى تاجروا معها ولا سيما اليونان الذين اتخذوا منها حروف كتابتهم بعد أن أدخلوا فيها تغييرات بسيطة وأخذتها عنهم

بعد ذلك بلاد أوروبا . ومن الشعوب التى استوطنت سوريا كذلك الآراميون وقد دخلوها بعد الأموريين والكنعانيين والفينيقيين وقد أنشأوا بها عدة مدن منها دمشق وحماه واشتهروا بالتجارة البرية ، فكانت قوافلهم تحمل البضائع من الخليج العربى الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط . وكــذلك جـــاء الأشوريون من جنوب غربى آسيا وسكنوا القسم الشمالى من نهر الفرات ، وتحضروا بحضارة السومريين والأكاديين . وقد نشأ الأشوريون على الحرب والقتال ، ومن ثم تمكنوا من بسط نفوذهم على سوريا ولبنان وفلسطين ، كما تمكنوا فى وقت من الأوقات من غزو مصر . ثم جاء الكلدانيون واستوطنوا شواطىء خليج البصرة واستطاعوا القضاء على النفوذ الأشورى وامتد حكمهم بعد ذلك الى فلسطين ، وكان اليهود قد أقاموا لهم مملكة فيهـــا ، فأسروهم وساقوهم الى الأسر فى بابل وهدموا معابدهم وخربوا بلادهم وقضوا عـلى دولتهم . وقد اتصلت مصر فى أطوار تاريخها المختلفة بكثير من هذه الشعوب وتبادلت معها التجارة كما تبادلت معها الأفكار والعقائد والتقاليد ، فأثرت فيها وتأثرت بها فى كل مظاهر حضارتها .

الباب الثاني

الدولة الوسطى

الفصل الأول

ملوك الدولة الوسطى

الاسرة الحادية عشره

انتف الأول وخلفاؤه

فى أواخر عهد الأسرة العاشرة بدأ يسطع نجم مدينة من مدن الوجه القبلى ويرتفع شأنها ، وهى مدينة « طيبة » التى كانت تقع مكان مدينة الأقصر الحالية ، اذ ظهرت فيها أسرة قوية يتزعمها أمير يدعى « انتف » • وما فتىء نفوذ هذا الأمير يتسع وسلطانه يمتد على المقاطعات المجاورة له حتى استطاع أن يسيطر على جنوب القطر كله من طيبة الى الشلال الأول ، واتخذ لنفسه لقب « حامى باب مصر الجنوبى » ثم أخذ يبسط سلطانه على بقية مقاطعات القطر واحدة بعد أخرى ، واتخذ لنفسه الألقاب الفرعونية ونادى بنفسه ملكا باسم « انتف الأول » فكان هو مؤسس الأسرة الحادية عشرة التى يبدأ بها عهد الدولة الوسطى •

وقد استمر « انتف الأول » فى الحكم أربعين سنة • فلما مات خلفه ابنه « انتف الثانى » ثم « منتوحتب الأول » ثم « منتوحتب الثـــانى » ثم « منتوحتب الثالث » • وقد تمكن هذا الأخير من اخضاع مقاطعات الوجــه البحرى والقضاء نهائيا على سلطة ملوك الأسرة العشرة الاهناسية • وبذلك وحد مصر مرة ثانية وجعل عاصمتها طيبة • وكان ذلك حوالى عام ٢٠٦٠ قبل الميلاد •وبعد أن أسس لمصر حكومة قوية راسخة الدعائم توفى فخلفه«منتوحتب الرابع » ، وقد وطد سلطان أسرته ودعم أركان حكومته ووسع رقعة بلاده ، اذ ضم اليها جزءا كبيرا من بلاد النوبة • وشجع العمارة فشيد كثيرا من المبانى ومنها معبد جميل أقامه على صخور طيبة • وقد استمر حكمه نحو أربعــين سنة ، بلغت البلاد فيها قدرا عظيما من القوة والرخاء ، فظل المصريون بعـــد وفاته بمئات السنين يشيدون بذكره ويعتبرونه المؤسس الأكبر لسيادة طيبة• وقد خلفه بعد موته « منتوحتب الخامس » فواصل مشروعاته التوسعيـــة والعمرانية ، فغزا النوبة والسودان وسواحل البحر الأحمر واهتم بالتجارة مع البلاد الأجنبية وقد توفى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، فانتهى بموته عهـــد الأسرة الحادية عشرة ، بعد أن حكمت حوالى ١٦٠ سنة •

وقد رأينا أنه لم يكن للملوك الذين حكموا مصر بعد سقـــوط الأسرة السادسة من السلطة فى البلاد سوى الاسم • أما النفوذ الحقيقى فكان فى يد حكام المقاطعات الذين استغلوا ضعف الملوك واستقلوا بالحكم فى مقاطعاتهم ، ثم راحوا يتنافسون فيما بينهم ويحاول كل منهم أن يسيطر على المقاطعات التى يحكمها غيره • وعلى الرغم من اتحاد البلاد مرة أخرى فى عهد الأسرة الحادية عشرة وقيام حكومة مركزية يرأسها الملك ، فقد احتفظ الأمراء مع ذلك بسلطانهم وسطوتهم فى مقاطعاتهم • الا أنهم أصبحوا فى ذلك العهد أكثر ولاء للملك وأوثق اتصالا به ، فكانوا يمدونه بالجنود اذا خرج للقتـــال ، ويوافونه بالمال اذا احتاج اليه ، كما أصبح للملك فى المقاطعات موظفـــون

يشرفون على أعمالها ، ولكن رقابتهم في الواقع كانت اسمية فقط ، اذ كان الحكام لا يزالون أصحاب الأمر والنهي في مقاطعاتهم ، وكانوا يتولون بأنفسهم كل اختصاصات الحكومة فيها ، فكانوا هم الذين يجمعون الضرائب مثلا ويرسلون الى بيت المال الملكي نصيبه منها ، ومن ثم كانوا أشبه بفراعنة صغار ، لكل منهم دولته وصولته وبلاطه الخاص وكل مظاهر السيادة والسلطان ٠

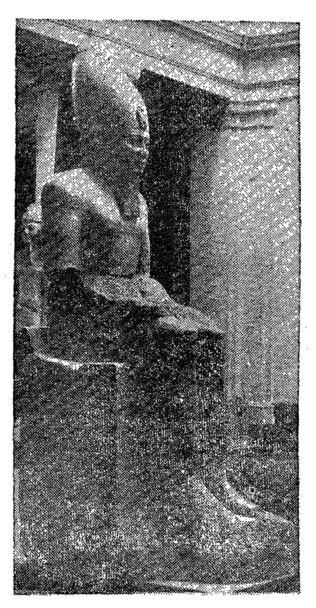
والى جانب طبقة حكام الأقاليم التي كانت هي طبقة الأمراء والاشراف وهي الطبقة العليا في البلاد ، ظهرت في عهد الأسرة الحادية عشرة طبقة جديدة نشأت في ظل النظام الاقطاعي الذي ساد بعد سقوط الدولة القديمة ، وتلك هي الطبقة الوسطى التي تكونت من التجار والفنانين وأرباب الصناعات وكبار الموظفين ٠ وكان أفرادها ينزعون بفضل ثروتهم أو ثقافتهم الى محاكاة أفراد الطبقة العليا في نظام حياتهم وأسلوب معيشتهم وحتى في طريقة دفنهم فبنوا القبور الحجرية ، ونصبوا فيها لوحات تذكارية تتضمن أسماءهم وألقابهم ووظائفهم وما بلغوا من مكانة في المجتمع ٠ أما الفلاحون والعمال وصغار الموظفين فكانوا هم الطبقة الدنيا الكادحة التي تعمل وتشقى وتعيش مع ذلك عيش الكفاف ٠

الاسرة الثانية عشرة

امنمحعت الأول

وفي أواخر عهد الأسرة الحادية عشرة، تعرضت البلاد لغارة عدو أجنبي، فهب لملاقاته أحد أمراء طيبة المسمى « أمنمحعت » وأعد جيشا وأسطولا نهريا رد بهما العدو على أعقابه وطرده من مصر ثم تولى العرش بعد وفاة آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة وأسس الأسرة الثانية عشرة ٠

وحين ارتقى أمنمحعت العرش كان نفوذ حكام المقاطعات قد بلغ ذروته ، فلم يحاول أن يخضعهم بالقوة والقسر ، أو أن يسلبهم نفوذهم الذى تمتعوا به عدة أجيال دفعةواحدة ٠وانما تذرع لذلك بالحكمةوالدهاء ،فراح يخطب ودهم



« أمنمحعت الأول »

بالكياسة واللين تارة ، ويكسب احترامهم بحسن السياســـة والحزم تارة أخرى ، حتى التفوا حوله وأخلصوا له وتفانوا فى خـــدمته ، ومن ثم انفرد بالسلطان وأصبح صاحب الكلمة العليا فى البلاد ، ومهد طريق الاستقرار

لأبنائه من بعده قرنين من الزمان .

وقد رأى أمنمحعت الأول أن « طيبة » عاصمة البـلاد فى عهد الأسرة الحادية عشرة ذات موقع متطرف فى أقصى الجنوب ويصعب عليه الاشراف منها على كل أنحاء البلاد ، فأنشأ عاصمة جديدة بالقرب من مدينة « منف » سماها « اثت تاو » وبنى بجوارها هرمه الذى لا تزال بقاياه قائمة الى اليوم .

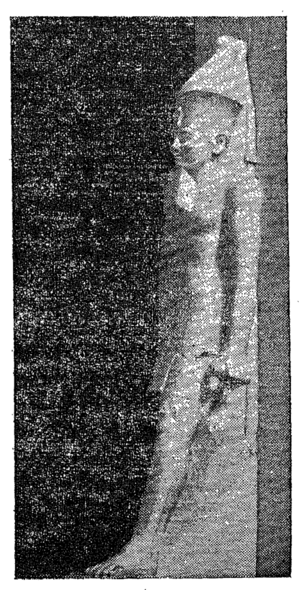
وقد استأنف هذا الملك ارسال الجيوش لغزو النوبة فأعاد فتح جزء كبير منها . كما تصدى للقبائل الآسيوية التى كانت تشن الغـارات على شرق الدلتا وشتت شملها وأقام الحصون على الحدود الشرقية لحماية البلاد من اعتداءاتها .

وقد اهتم هذا الملك ـ فضلا عن تأمين حدود بلاده ـ بمصالح شعبه ولا سيما الفلاحين فوزع ماء النيل عليهم بالعدل ، ومنع المنازعات التى كانت تكدر صفوهم حول تقسيم الأرض فأعاد مسحها ، وحدد أقسامها . ومن ثم كان عهده من أرقى عهود مصر وأكثرها سكينة ورخاء . بيد أنه ما كاد يفرغ من توطيد ملكه وتأمين سلامة بلاده وكفالة الرفاهية لشعبه ، حتى دبر بعض الذين كان يثق فيهم ويأتمنهم مؤامرة لقتله . ورغم أنه نجا من الموت فقد ظل بقية حياته مكتئبا حزين النفس ، وأشرك معه فى الحكم ابنه « سنوسرت » عـام ١٩٨٠ قبل الميلاد كى يتمرن على أعباء الدولة ، ويتمرس بالتجارب التى تؤهله للنهوض بمسئولياتها . وقد أصبح ذلك تقليدا اتبعه خلفاؤه من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، فوجدوا من أبنائهم خير أعوان لهم فيما يقومون به من أعمـال أو يرمون اليه من أغراض وأهداف .

وقد توفى أمنمحعت الأول عام ١٩٧٠ قبل الميلاد بعد أن حكم ثلاثين عاما ، فخلفه ابنه سنوسرت الذى كان فى ذلك الوقت على رأس الجيش يحارب الليبيين على حدود مصر الغربية .

سنوسرت الأول

وقد جلس سنوسرت الأول على العرش بعد أبيه وسار سيرته فى الفتح فتوغلت جيوشه فى بلاد النوبة حتى بلغت الشلال الرابع • وأرسل الحملات



« سنوسرت الأول »

لتأديب القبائل الآسيوية التى كانت على حدود مصر الشرقية ، كما ارسلها لطرد قبائل الليبيين التى كانت تغير على حدودها الغربية • وقد نشأ عن اخضاع النوبة أن تدفق ذهبها على خزائن مصر ، كما نشأ عن تأمين الحدود

استمرار استخراج الذهب من مناجم الصحراء الشرقية ، ومن ثم ازدادت فى البلاد أسباب الرخاء واليسر ، وتقدمت فى مرافقها وقامت بها نهضة فنية كبيرة تشهد بها الآثار الباقية فى مقابر ذلك العهد بمحافظة المنيا ، كما تشهد بها المسلة الشهيرة التى أقامها سنوسرت الأول ولا تزال باقية فى المطرية بالقرب من القاهرة . وقد توفى سنوسرت عام ١٩٣٥ قبل الميلاد بعد أن حكم خمسة وثلاثين عاما وأعقبه ابنه « أمنمحعت الثانى » .

أمنمحعت الثانى وسنوسرت الثانى

وقد جرى أمنمحعت الثانى على سياسة أبيه ، فاستمر فى عهده الهدوء وساد الاستقرار ونعمت البلاد بحكومة صالحة وضعت كل همها فى تنمية



« أمنمحعت الثانى فى هيئة أبى الهول »

الثروة الأهلية ، وقد أصبح ذهب النوبة من أهم أركان الثروة فى البلاد ونشط العمل بمناجم النحاس فى سينا وتوطدت التجارة مع الصومال . وفى

أواخر عهد « أمنمحعت الثاني » أشرك معه في الحكم ابنه « سنوسرت الثاني » ثم توفي عام ١٩٠٣ فانفرد « سنوسرت الثاني » بالحكم وقد استمر في سياسة أبيه وجده وفي أواخر عهده أشرك معه ابنه « سنوسرت الثالث » حتى اذا توفي عام ١٨٨٧ انفرد هذا بالحكم .



« سنوسرت الثاني »

سنوسرت الثالث

وكان سنوسرت الثالث شديد البأس فقبض على زمام الأمور بعزيمة وحزم ، حتى لقد فقد حكام المقاطعات في عهده ما كان قد تبقى لهم من نفوذ . وكان يميل الى الفتح ، فكان هو أول فرعون يقود بنفسه الجيوش لغزو البلاد الأجنبية . وقد بدأ في عهده ازدهار الروح العسكرية التي مهدت بعد ذلك لقيام الامبراطورية . وقد غزا سنوسرت الثالث سوريا وأوقع بشدته الرعب في قلوب أهلها واقترن اسمه لديهم بالخشية والرهبة . وكان أهل سوريا

في ذلك الوقت على جانب عظيم من الحضارة ، وقد راجت تجارتهم فى كل أنحاء العالم القديم • كما غزا هذا الملك بلاد النوبة وضم الى مصر أقاليمها الى ما وراء الشلال الثانى ، وأقام عند ذلك الشلال قلعتين متقابلتين هما المعروفتان بقلعتى « سمنة وقمنة » لحماية الحدود الجنوبية الجديدة لبلاده ، وحذر الشعوب الافريقية من أن تتجاوز تلك الحدود الا للتجارة • ولا تزال آثار هاتين القلعتين باقية الى اليوم • وقد أعاد « سنوسرت الثالث » حفر القنوات التى تخترق صخور الشلال الأول كى ييسر سير السفن فى النيل الى البلاد الجنوبية • كما أنه قام بتنفيذ مشروع عظيم الأهمية ولا سيما من الناحية التجارية ، اذ حفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر فى موضع يقرب من قناة السويس الحالية ، وقد سماها اليونان « قناة سيزوستريس » لأنهم كانوا يعرفون سنوسرت باسم سيزوستريس •

وقد أشرك سنوسرت الثالث معه فى الحكم فى آخر عهده ابنه «أمنمحعت الثالث » ثم توفى عام ١٨٤٩ بعد أن حكم ثمانية وثلاثين عاما قضاها كلها فى الفتوح وأعمال الاصلاح • وقد ظل المصريون يتناقلون الحكايات عن أعماله المجيدة زمنا طويلا ، وأنزلوه من أنفسهم منزلة الاله •

أمنمحعت الثالث

وقد تولى أمنمحعت الثالث الحكم بعد أبيه • وكان عهده من أمجد عهود مصر القديمة ، وقد قام بعدد عظيم من أعمال الانشاء والاصلاح التى زادت من ثروة البلاد وعادت عليها بالخير والرفاهية •

وكان من أبرز ما اهتم به أمنمحعت الثالث تنظيم وسائل الرى لتوزيع مياه الفيضان فى كل أنحاء القطر ، وتوسيع رقعة الأرض الصالحة للزراعة • فكان عهده هو العهد الذهبى للفلاح • وقد كانت مياه النيل تغمر فى موسم

الفيضان اقليم الفيوم لانخفاضه عن سطح النهر فيتحول الى بحيرة عظيمة كانت تسمى بحيرة موريس ، وكانت المياه تصل الى هناك من فجوة فى الهضبة الغربية المتاخمة للفيوم • وقد حاول المصريون منذ العصور السابقة على التاريخ أن يمنعوا طغيان المياه على ذلك الاقليم كى يستغلوه فى الزراعة فأقاموا سدا فى الفجوة التى تصل النيل بمنخفض الفيوم عند اللاهون • حتى اذا جاء « أمنمحعت الثالث » مد هذا السد حتى أصبح طوله سبعة وعشرين ميلا ، فاستطاع بذلك أن يجعل من تلك البحيرة خزانا عظيما يمكن احتجاز مياه الفيضان فيه لاستعمالها فى رى أراضى الوجه البحرى فى وقت التحاريق • كما أدى بناء ذلك السد الى انحسار مياه النيل عن حوالى سبعة وعشرين ألفا من الافدنة أصبحت صالحة للزراعة • ويعتبر هذا المشروع من أعظم الأعمال الهندسية التى تمت فى كل أنحاء العالم القديم •

وقد أنشأ أمنمحعت الثالث مقياسا للنيل على صخور قلعة « سمنة » عند الشلال الثانى لتسجيل ارتفاع الماء وانخفاضه ولا سيما فى وقت الفيضان • وقد أمكن بذلك المقياس مراقبة النهر ومعرفة مدى فيضانه فى كل عام • فكان ذا فائدة عظيمة ولا سيما فى تقدير ما تنتجه الأرض من محصول ، وما ينبغى ربطه عليها ــ بناء على ذلك ــ من ضرائب • ولا تزال بعض البيانات التى سجلها ذلك المقياس باقية الى اليوم •

كما عمل أمنمحعت الثالث على تنظيم استغلال المناجم فى سينا • فقد رأى أن البعوث التى تذهب الى هناك تعانى من وعورة الطريق وجفاف الصحراء وغارات القبائل الأسيوية ، فأنشأ فى الطريق محطات للاستراحة وحفر فيها الآبار وأقام القلاع لصد غارات القبائل • كما أنه قام ببناء المساكن للعمال فى الصحراء بالقرب من أماكن عملهم ، ووضع المناجم تحت اشراف رؤساء مسئولين ، فانتظم العمل بها وأصبح نتاجها موردا ثابتا من موارد الدولة وركنا هاما فى ميزانيتها •

وقد شجع أمنمحعت الثالث العمارة وأقام كثيرا من البنايات العظيمة ومن ذلك أنه شيد قصرا ضخما على مقربة من السد الذى أقامه عند مدخل الفيوم يبلغ طوله ألف قدم وعرضه ثمانمائة قدم واتخذه مقرا للحكومة المركزية • وقد دهش بعض الزائرين الأجانب فى العصور القديمة من ضخامة هذا القصر وكثرة حجراته وتشعب دهاليزه وطرقاته فسموه « اللابيرانت » تشبيها له بقصر اللابيرانت الذى تحدثت عنه الأساطير القديمة فى كريت ، والذى اذا دخله الانسان يضل طريقه فى دهاليزه فلا يستطيع الخروج منه • وقد ذكر أحد المؤرخين القدماء ممن رأوا ذلك القصر أنه كان مشيدا من الحجر الخالص فلم يدخل فى بنائه خشب أو حديد أو أى مادة أخرى من مواد البناء ، كما ذكر أن سقف كل حجرة من حجراته كان عبارة عن حجر واحد عظيم الضخامة •

وقد مات أمنمحعت الثالث عام ١٨٠١ قبل الميلاد ، بعد أن حكم زهاء خمسين عاما ، نعمت فيها البلاد بالأمن والطمأنينة والخير والرفاهية • وقد دفن فى هرمه بدهشور ، وكان موته نذيرا بسقوط أسرته ، اذ كان ابنه الذى خلفه وهو « أمنمحعت الرابع » ملكا ضعيفا ولم تتجاوز مدة حكمه تسع سنوات ، ولما مات خلفته أخته « سبك نفرو رع » وحكمت أربع سنوات جاهدت خلالها لتحتفظ لأسرتها بالعرش ولكن موتها عام ١٧٨٨ ختم عهد الأسرة الثانية عشرة ، بعد أن استمرت فى حكم البلاد من عام ٢٠٠٠ الى عام ١٧٨٨ قبل الميلاد أى نحو ٢١٢ عاما •

ويعد عهد الأسرة الثانية عشرة أزهى عصور الدولة الوسطى ، بفضل ملوكها الذين اهتموا بمصلحة الشعب وسلامته ورفاهيته أكثر من أى شيء آخر ، كما اهتموا بالعلوم والفنون ، وشجعوا الصناعة والتجارة ، فكانوا من أعظم الملوك فى تاريخ مصر •

* * *

الأسرة الثالثة عشرة

سخم رع خوتارى وخلفاؤه

كان حكام الأقاليم فى أواخر عهد الأسرة الثانية عشرة قد بدأوا يستردون نفوذهم القديم ويسترجعون ما كان لهم من استقلال عن سلطة فرعون ، فما أن انتهى عهد هذه الأسرة حتى عادت مصر الى حالتها بعد سقوط الأسرة السادسة من نزاع واضطراب وفوضى • وقد انتقل الحكم الى الأسرة الثالثة عشرة فى هذه الظروف ، فلم يكد أول ملوكها يجلس على العرش وهو « سخم رع خوتارى » حتى اشتدت عوامل الشقاق بين حكام الأقاليم وراح كل منهم يسعى الى خلع الملك واغتصاب العرش لنفسه ، وظل الصراع محتدما طوال عهد هذا الملك وثلاثة ملوك جاءوا بعده وقضوا فى الحكم مددا قصيرة ، ثم اخيرا نجح أحد الحكام ويدعى « يوفنى » فى اغتصاب العرش • وعلى أثر ذلك نشبت الحروب الأهلية فى البلاد واحتدم التنافس بين حكام المقاطعات اذ كان كل منهم يريد العرش لنفسه ، حتى اذا نجح أحدهم فى اغتصابه نادى بنفسه ملكا واتخذ لنفسه الألقاب الفرعونية ، ولكنه لا يمكث طويلا ، اذ لا يلبث أن يخلعه حاكم آخر ، ويجلس على العرش مكانه ، حتى بلغ عدد الذين جلسوا على العرش ١١٨ ملكا فى فترة لا تتجاوز قرنا ونصف قرن • وكانت مدة حكم كل منهم تتراوح بين سنة واحدة وثلاث سنوات • بل كانت أحيانا لا تزيد عن يومين أو ثلاثة أيام • وقد بلغتنا بعض أسماء هؤلاء الملوك ، ومنهم « سبكماف » و « سبك حوتب » و « نفر حوتب » و « سيحاتحور » و « نفر خارع » • وفى هذا العهد المظلم تدهورت حالة البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، واستخدم الحكام الظلم والعسف مع الأهالى ، ففرضوا عليهم الرسوم الثقيلة والضرائب الباهظة وجمعوها منهم بالقسوة والغلظة ، فعم البؤس وساد

الجور والفساد ، وصارت البلاد الى حال فظيعة من الانحـلال والاضمحلال والضعف ، حتى أصبح من السهل أن تقع فريسة فى يد أى غاز أو غاصب • وهذا ما حدث بالفعل ، اذ أغار على مصر فى ذلك العهد قوم آسيويون سماهم المصريون بالهكسوس وأخضعوا البلاد واحتلوها وأذلوها •

عهد الهكسوس

من أواخر الأسرة الثالثة عشرة الى نهاية الأسرة السابعة عشرة

وقد اختلفت الآراء فى تحـديد أصل الهكسوس : فقـال فريق من الباحثين أنهم من الرعاة الآسيويين ، اذ يدل على ذلك اسمهم فى اللغة المصرية القديمة • وقال فريق آخر أنهم من سلالة آرية نزحت من آسـيا الى بلاد ما بين النهرين ثم زحفت غربا الى مصر • وقال فريق ثالث انهم من الشعوب السامية التى كانت تقطن ساحل الشام • وقال فريق رابع أنهم من يهـود فلسطين ، وقد استندوا فى ذلك الى ما ذكره المؤرخ القـديم مانيثون من أن الهكسوس هم بعض قبائل بنى اسرائيل ، كما استندوا الى بعض النصوص المصرية القـديمة التى كانت تسميهم « حقا خاسوت » أى « حكام قبـائل فلسطين » ، كما كانت تسميهم « شاسو » أى « قبائل جنوب فلسطين » • وكانت كل أسماء ملوك الهكسوس ترجع الى أصل كنعانى مثل « يعقوب ايل » و « عنات ايل » ، و « عابد » و « نحمنى » • كما يقول المـؤرخ اليهـودى يوسيفوس أن بنى اسرائيـل من الهكسوس • ولكن الحقيقة أن أصـل الهكسوس لا زال غامضا ولا يمكن ترجيح رأى من الآراء السالفة أو التعويل عليه •

ومهما يكن أصل الهكسوس فقد كانوا قوما شرسـين متمرسين بفنون

القتال ، وقد تفوقوا على المصريين بعجلاتهم الحربية التى تجرها الخيول التى لم تكن معروفة فى مصر ، والتى كانت تخترق صفوف المشاة فتوقع بينهم الارتباك والاضطراب ، كما تفوقوا على المصريين بما كانوا يستخدمونه من أسلحة لم يسبق للجيوش المصرية أن استخدمتها ولا سيما الخناجر والسيوف البرونزية والأقواس الضخمة البعيدة المرمى • ومع ذلك قاومهم المصريون مقاومة عنيفة مستبسلة ، ولكنهم بسبب تفرق كلمتهم وما كان يسود بلادهم من اضطراب وفوضى ، عجزوا عن الصمود لجموعهم الضخمة وأسلحتهم الغريبة عليهم ، فتمكن الهكسوس من السيطرة على الدلتا وتثبيت أقدامهم فيها ، ثم لم يلبثوا أن زحفوا جنوبا واستولوا على منف ، ثم استولوا على الأشمونين والقوصية بالقرب من ديروط ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على أكثر من ذلك فى الصعيد ، ومن ثم ظلت طيبة مستقلة عنهم ، بعيدة عن متناول سلطانهم • أما بقية بلاد القطر فقد وقعت تحت ربقتهم •

وقد جعل الهكسوس عاصمتهم مدينة « أفاريس » التى سماها اليونان بعد ذلك « سايس » ، وكانت فى مكان « صا الحجر » الكائنة حاليا فى الشمال الشرقى من الدلتا ، وقد توخى الهكسوس فى اختيار موقعها أن تكون قريبة من بلادهم الأصلية ، حتى يسهل عليهم العودة اليها اذا اضطروا للانسحاب •

وقد تظاهر الهكسوس فى البداية بالتساهل مع المصريين وافتعلوا التودد اليهم فأبقوا ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة على عروشهم واكتفوا بأن جعلوهم خاضعين لهم • ولكنهم ما أن استتب لهم الأمر فى البلاد حتى عاملوا المصريين أسوأ معاملة فأهانوهم واستعبدوهم ونهبوا ممتلكاتهم وخربوا معابدهم وأحرقوا مدنهم وقراهم وفرضوا عليهم الجزية وأذاقوهم كل أنواع العذاب والذل • ولم يلبثوا أن جلسوا بأنفسهم على العرش مكان الملوك المصريين بعد أن أطاحوا بالأسرة الرابعة عشرة وأسسوا الأسرتين

الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، واتخذوا لأنفسهم الألقاب الفرعونية ، فكان من ملوكهم « أبوفيس » و « خيان » و خنزر » و « يعقوب حر » . بيد أنهم لم يلبثوا أن وجدوا أن الشدة لا تجدى مع المصريين فعادوا يلاينونهم ويتملقونهم ويعبدون معبوداتهم ويبنون المعابد على الطراز المصرى ويقلدون الملوك المصريين فيما كانوا يقومون به من أعمال ، ويلتزمونه من عادات وتقاليد . الا أن المصريين ظلوا مع ذلك يكرهونهم ويحتقرونهم ويعتبرونهم وصمة عار لحقت بشرفهم وكرامتهم ، ويتطلعون الى اليوم الذى يتخلصون فيه من ربقتهم ويطردونهم .

وقد استمر الهكسوس يحكمون مصر مدة تزيد على قرن من الزمان ، كانوا خلالها يجثمون على صدر البلاد ويحكمونها بالقوة والبطش ، ومع أن أمراء مصر العليا ظلوا بعيدين عن متناول قبضتهم ، الا أنهم لم يستطيعوا مهاجمتهم وهم فى عنفوان قوتهم وسطوتهم . حتى ظهر أخيرا بمدينة طيبة بعض الأمراء العظام الذين يعتبرهم المؤرخون ملوك الأسرة السابعة عشرة ، وتزعموا حركة تحرير البلاد من الهكسوس ، وراحوا يعدون العدة لذلك ويضمون اليهم حكام المقاطعات الجنوبية الأخرى ولا سيما الكاب ، فما أحس الهكسوس بذلك حتى شرعوا يستعدون للقضاء على طيبة وأعوانها ، وظلت الحرب مستعرة بين الجانبين سنين طويلة ، وقد تصدى للهكسوس أثناءها « سقنن رع » أمير طيبة ، ثم خلفه فى ذلك ابنه « كامس » ولكنه استشهد فى القتال ، فخلفه أخوه « أحمس » ، وكان شابا عظيم الهمة شديد البأس ، فوحد صفوف المصريين وجند منهم جيشا عظيما وزوده بذات الأسلحة التى كان يستخدمها الهكسوس ، وأعد فرقا من العجلات الحربية التى تجرها الخيل وبنى أسطولا نهريا ليستعين به فى مطاردة الهكسوس ، حتى اذا اكتملت له القوة ، واستوفى كل الاستعدادات اللازمة زحف بجيشه وأسطوله نحو الشمال ، فذعر الهكسوس وأذهلتهم المفاجأة فولوا هاربين الى منف ،

ولكنه أسرع خلفهم بجحافله ، فواصلوا فرارهم نحو الشمال ، ولكنه تعقبهم حتى اذا بلغوا عاصمتهم « أفاريس » تحصنوا وراء حصـونها ، فحاصرهم وهدم الحصون على رؤوسـهم وأباد الغالبية العظمى منهم ، ثم راح يطـارد الذين أفلتوا منهم حتى فلسطين ، حيث التحم بهم فى موقعة شاروهين ، وقضى عليهم القضاء الأخير • وهكذا حرر بلاده من الغاصبين واسترد لها كرامتهـا ومكانتها ، فوضع بذلك أساس الدولة الحديثة فى مصر كما وضـع أساس الامبراطورية المصرية العظيمة •

الفصل الثاني

مظاهر الحضارة في عهد الدولة الوسطى

١ — النظام السياسي والإداري

تمكنت مصر فى عهد الدولة الوسطى — وفى ظل حكومة ترتكز على ذات الأسس السياسية والادارية التى ارتكزت عليها حكومة الدولة القديمة — من استرداد مكانها الأول الذى عرفته لها الدنيا فى عصر بناة الأهرام ، ونجحت فى بعث حضارة تماثل حضــــارة الدولة القديمة من حيث طابعهــــا المصرى الأصيل .

وكان نظام الادارة فى عهد الدولة الوسطى لا يختلف عنه فى عهـــد الدولة القديمة غير تغييرات بسيطة لبعض أسماء الوظائف وكثرة عدد الموظفين وتعدد المديرين ذوى الوظائف الكبرى ، وازدياد أهميتهم ، واهتمام الحكومة بارسال موظفيها الى كل أنحاء البلاد لمراقبة المرافق المختلفة ورفع التقـــارير عنها للادارة المركزية .

وكانت تجرى عملية احصاء السكان والأملاك فى هذا العهد كل خمسة

عشر عاما بغاية النظام والدقة ، فكان يتحتم على كل رب أسرة أن يسجل عدد أفراد أسرته وخدمه وعبيده وممتلكاته فى أحد مكاتب التسجيل أمام الموظفين المختصين • وكانت السجلات الخاصة بهذا الاحصاء تحفظ فى دار المحفوظات للرجوع اليها عند الحاجة •

وكان تأمين حدود مصر من أهم واجبات الحكومة فى ذلك العهد ، فكانت تقوم لذلك ببناء القلاع الحصينة على الحدود ، ومن أشهرها القلعتان اللتان أقامهما سنوسرت الثالث على ضفتى النيل بالقرب من الشلال الثانى ، وهما قلعتا سمنة وقمنة ، وقد أمكن بواسطتهما لملوك الأسرة الثانية عشرة مراقبة تحركات النوبيين الذين كانوا ممنوعين من تخطى الحدود المصرية الا للتجارة• وقد وضعت الحكومة فى هاتين القلعتين موظفين يقومون يوميا بتسجيل أسماء الذين يدخلون البلاد ، ويرسلون الى العاصمة بيانا بتلك الأسماء بانتظام • كما أنشأ ملوك الدولة الوسطى حصنا كبيرا فى وادى الطميلات الذى يقع شرق الدلتا لمراقبة القبائل الآسيوية وصد غاراتها •

وقد استخدم ملوك الدولة الوسطى قوة مسلحة دائمة لحماية البلاد من الغزوات الأجنبية ، وقد أمكنهم بها غزو النوبة وضمها الى مصر نهائيا فى عهد سنوسرت الثالث ، كما أمكنهم بها اخضاع الليبيين وتأمين الحدود الشرقية حتى فلسطين •

وكان حكام المقاطعات فى هذا العهد على جانب كبير من القوة ، فكان لكل حاكم جيشه الخاص ، وكان يشرف على جباية الضرائب ورعاية الشئون الدينية فى مقاطعته ، ومن ثم كان على الملك أن يتوخى الحكمة والحزم فى معاملة أولئك الحكام ، لأن أى وهن يبدو من جانبه ، كان من شأنه أن يشجعهم على التمرد والعصيان ، ويؤدى الى تفكك عرى الدولة والعودة بها الى زمن الاضطراب والفوضى • وهذا ما حدث بالفعل فى عهد الأسرة الثالثة عشرة ، حين جلس على العرش بعض الملوك الضعفاء ، فقويت شوكة حكام المقاطعات

وطمع كل منهم فى السيطرة على المملكة كلهـــا ، ومن ثم نشبت فى البلاد الحروب الأهلية وانهار صرح وحدتها وانتابها الضعف والانحـــلال فوقعت فريسة الهكسوس الذين استولوا عليها واستعبدوها ٠

٢ ـــ الحياة الاجتماعية

وقد تقدمت الحيـــاة الاجتماعية فى عهـــد الدولة الوسطى وازدادت ازدهارا ٠ وقد برز فيها دور الطبقة الوسطى التى تكونت فى أواخر عهـــد الدولة القديمة فى ظل النظام الاقطاعى ٠ وقد أدى الى اتساع نطاق هـــذه الطبقة الجديدة فى هذا العهد ازدياد عدد كبار الموظفين والتجـار الموسرين ، فأصبح لهذه الطبقة أهمية كبرى فى المجتمع المصرى ٠

وقد رسمت لنا قصة « الملاح الغريق » التى ترجع الى ذلك العهد صورة رائعة للأسرة المصرية حينذاك ، وما كان يربط بين أفرادها من محبة وتعاون واخلاص ٠

٣ ـــ العقائد الدينية

وقد امتاز عصر الدولة الوسطى بتغيير واضح فى المذهب الدينى للدولة المصرية ٠ فقد رأينـــا أن رع كان هو الالـــه الرسمى للأسرتين الخامسة والسادسة ، حتى اذا سقطت الدولة القديمة وانفرط عقد الوحدة عادت كلٌ مقاطعة من مقاطعات مصر الى عبادة الهها المحلى ، بيد أن الاله رع ظل يحتـل مكانا رفيعا من قلوب المصريين على العموم ، حتى اضطر كهنة الآلهـة الأخرى ـ كى يحتفظوا ببعض مكانتهم ـ أن يزعموا أن آلهتهم جميعا ما هى الا صور

متعددة للاله رع ، ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك فقالوا ان أسماء تلك الآلهة ما هى الا مرادفات لاسم رع ، ومن ثم عادوا من حيث لا يريدون أو يقصدون الى عقيدة التوحيد التى دفعتهم مصالحهم الشخصية فى بداية الأمر الى الابتعاد عنها وتعقيدها • ومن ثم أصبح كهنة « حوريس » يلقبون الههم « حوريس رع » ، وأصبح كهنة « آمون » يلقبون الههم « آمون رع » وهكذا •

بيد أن ثمة الها آخر ظل يضارع الاله رع فى مكانته لدى المصريين وهو « أوزوريس » • ولئن كان ارتفاع شأن رع قد نجم عن نفوذ كهنة عين شمس ، فقد كان ارتفاع شأن أوزوريس ناجما عن حب المصريين له وتعلقهم بشخصيته التى استهوت نفوسهم بما اتصفت به من فضيلة ووداعة واخلاص كما صورتها الأسطورة التى كانوا يتداولونها عنه ، وقد اتخذ فيها صورة اله الخير الذى انتصر على أخيه « ست » اله الشر • ومن ثم اعتبروه مثلهم الأعلى ، وكانوا يقومون كل عام بتمثيل قصة موته وقيامته وصعوده الى السماء ، واذ كانوا يعتقدون أن قبره فى العرابة المدفونة جعلوا من هذه المدينة كعبتهم التى كانوا يحجون اليها ويتوقون لأن يدفنوا موتاهم فيها • فاذا تعذر ذلك عليهم ، كانوا يحنطون جثة المتوفى وينقلونها الى هناك لتلاوة الصلوات عليها ثم يعيدونها الى حيث يتم دفنها ، فاذا تعذر ذلك كذلك اكتفوا باقامة شاهد للمتوفى بالقرب من قبر أوزوريس ينقشون عليه دعوات وابتهالات لهذا الاله كى يتولاه برحمته ويشمله بعنايته فى الحياة الأخرى •

حتى اذا ظهرت « طيبة » وصارت عاصمة البلاد فى عهد الدولة الوسطى ، ارتفع شأن المعبود المحلى لهذه المدينة وهو « آمون » وأصبح هو الاله الرسمى للدولة •

فلما تفككت وحدة البلاد مرة أخرى وتولاها الضعف واستولى عليها الهكسوس ، رفعوا شأن الاله الذى يمقته المصريون ويعتبرونه اله الشر وهو

« ست » وجعلوه معبودا رسميا للدولة ، كى يكيدوا لهم ويزيدوا من اذلالهم، ولكنهم اذ عجزوا عن اخضاع طيبة ، ظلت متمسكة بعبادة « آمون » ، حتى اذا أمكن لهذه المدينة الباسلة بعد ذلك أن تتزعم حركة التحرير وتطرد الهكسوس من البلاد عادت الى « آمون » مكانته الأولى فى القطر كله وما فتىء يرتفع شأنه بعد ذلك حتى أصبح الها عالميا فى عهد الامبراطورية .

٤ — الآداب

وقد ازدهرت الآداب فى عهد الدولة الوسطى وكان اللون الغالب عليها هو القصة ، وقد شغف الناس بهذا اللون من الأدب . ومن أروع القصص التى أبدعها أدباء ذلك العهد قصة سنوحى ، التى ظلت بعد ذلك مثالا يحتذيه المصريون فى البلاغة ويلقنونه لأبنائهم ، بل لقد بلغ من اعجابهم بها أنهم كانوا ينقشونها على الأحجار وشواهد القبور . كما كان من روائع ذلك العهد قصة البحار الغريق التى يعتقد الباحثون أنها الأصل الذى اتخذ منه المؤلفون الحديثون قصة السندباد البحرى وغيرها من قصص المغامرات .

كما كان من ألوان الأدب فى ذلك العهد أدب النصائح والتأملات ، ومن ذلك مجموعة النصائح التى وجهها أمنمحعت الأول لابنه وظل المصريون يتداولونها زمنا طويلا . ومن ذلك كذلك تأملات رجل سئم الحياة ويئس منها فراح يناجى نفسه واصفا بؤس حاله وخيبة آماله فى الدنيا وفى الناس، وقد تراءت له الحياة سجنا تتوق الروح الى مغادرته والانطلاق منه الى عالم الخلود .

وقد وصلت الينا من ذلك العهد نبوءة رجل يدعى « ايبور » قال فيها أن البلاد مقبلة على أيام عصيبة ، وأنها فى تلك الأيام سيحل بها الخراب

والدمار ، ويقع أبناؤها فريسة الفقر والجوع وينهب بعضهم بعضا ويقتل الابن أباه والأخ أخاه ، فلا يلبث أعداء البلاد أن يهاجموها ويستولوا عليها ويستعبدوها • ثم يظهر بعد ذلك رجل عظيم يطرد الأعداء ويعيد الى البلاد السلام والسكينة والرخاء • وتعتبر هذه أقدم نبوءة معروفة فى التاريخ •

كما كثرت فى هذا العهد الأناشيد الدينية مثل نشيد آمون ونشيد أوزوريس ، وانتشرت الأغانى الشعبية التى يترنم بها الناس أثناء تأدية أعمالهم كأغنية الحصاد • وكذلك أغانى الطرب التى يشدو بها المغنون فى الحفلات وولائم الملوك والأمراء والأغنياء •

وتمتاز آداب هذا العهد مهما اختلفت أساليبها بالطابع الشعرى الذى يغلب على عباراتها ومعانيها ، فكانوا يكتبون حتى القصص بأسلوب هو أقرب الى الشعر منه الى النثر • بيد أن الطابع الشعرى كان أكثر ظهورا ووضوحا فى الأناشيد والأغانى وكذلك فى قصائد المديح ، وقد وصلتنا منها قصيدة قيلت فى مدح « سنوسرت الثالث » •

ويعتبر عهد الدولة الوسطى أزهى عصور الأدب المصرى • وقد اعتبر المصريون فى العصور التالية آداب ذلك العهد نموذجا للفصاحة والبلاغة ، وظلوا طوال التاريخ المصرى القديم يسعون الى تقليده والاحتذاء به •

٥ ـ الفنون

وقد كانت الفنون فى عهد الدولة الوسطى تتسم بطابع ذلك العصر وتتمشى مع أحواله السياسية والاجتماعية • فلم تعد الأهرام والمقابر والمعابد فى ذلك العهد تستأثر بعناية الملوك واهتمامهم كما كان الحال فى عهد الدولة القديمة ، لأنهم انصرفوا الى المشروعات النافعة التى تعود على عامة الشعب

بالخير والرفاهية • ولذلك نرى أن كثيرا من ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة بنوا أهرامهم باللبن وان كان بعضهم قد كساها من الخارج بالحجر الأبيض • كما أن بعضهم الآخر نحتوا قبورهم فى صخور الجبال •

بيد أن مهندسى الدولة الوسطى قد أضافوا الى أساليب العمارة كثيرا من عناصر الحيوية والتطور • ونرى ذلك واضحا فى ضريح منتوحتب الثالث الذى يتميز بطرازه الفريد ، اذ اختار له المهندس الذى صممه مكانا فى حضن جبل ناهض من جبال طيبة الغربية ، وجمع فى تصميمه لأول مرة بين هرم فرعون ومعبده فى بناء واحد متصل ، وأراد للهرم أن يطاول ارتفاع الجبل فصمم تحته مسطحين عظيمين يعلو أحدهما الآخر ويؤدى اليهما طريق طويل عريض ، يبدأ بمدخل متسع عند حافة الوادى ، وأحاط المجموعة كلها بحديقة شاسعة ، وزينها بالأعمدة المرتفعة والتماثيل الملكية الواقفة والجالسة ، حتى استكمل بذلك لهذه التحفة كل عناصر الروعة والفخامة والجمال •

كما نرى مظهرا لتطور الفنون حينذاك فى معبد سنوسرت الأول ، اذ عدل المهندس الذى صممه عن الطراز المعتاد فى بناء المعابد ، فأقام ساحته فوق منصة مرتفعة تشبه المصطبة ، وكانت المواكب تصعد الى هذه الساحة فى طريق متدرج الارتفاع يتوسطه درج ، ثم تهبط منها فى طريق آخر متدرج الارتفاع يتوسطه درج كذلك • وقد أحاط الساحة بأعمدة رباعية تصل بينها جدران قليلة الارتفاع بحيث تبدو الساحة من خلفها غير مكشوفة كلها ولا محجوبة كلها ، مما أضفى عليها منظرا يخلب الألباب •

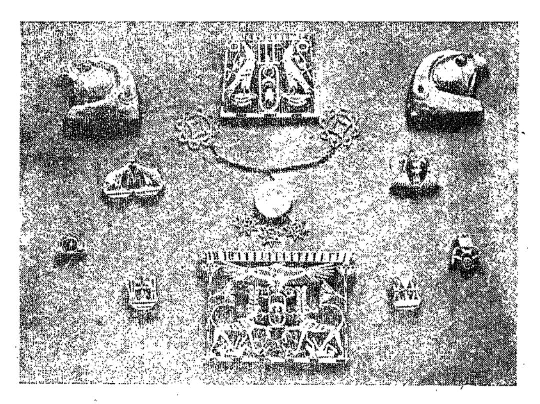
ولم تكن نهضة الفن فى هذا العهد قاصرة على العاصمة ، وانما تعدتها الى المقاطعات حيث نحت حكامها قبورهم فى الصخر وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة والرسوم الرائعة •

ومن المشروعات المعمارية العظيمة التى تمت فى عهـــد الدولة الوسطى سد الفيوم الذى أقامه الملك أمنمحعت الثالث ، والقصر الضخم الذى شـيده ليكون مقرا للحكومة المركزية • وقد شاهد اليونان والرومان فيما بعد هذين الصرحين الهائلين فأذهلتهم ضخـامتهما ولم يسعهم الا أن يشيدوا بقـدرة المهندسين المصريين وبراعتهم المعمارية •

وقد بلغ فن النحت وصناعة التماثيل فى عهد الدولة الوسطى درجـة رفيعة من الروعة والاتقان • وكان المثالون فى بداية هذا العهد يلتزمون فى عملهم بالتراث الفنى للدولة القديمة فمزجوا بين الواقعية والمثاليـة فى نحت تماثيل الفراعنة ، اذ أتقنوا محاكاة وجوههم وأبدانهم ، ولكنهم أضفوا عليهم فى ذات الوقت هيبة مطلقـــة وشبابا خالدا ، وتقـــاطيع مليحة متناسقة ، وانتصابة قوية كاملة • بيد أن المثالين لم يلبثوا فى فترة تالية من ذلك العهد أن التزموا بالواقعية الخالصـــة ، فأبرزوا ملامح الوجه وأعضـاء البدن فى تماثيل الفراعنة كما هى فى الواقع ، مجتهدين أن يبرزوا خصائص كل منهم وما ينفرد به من طبع ومزاج • ومن ثم عبروا بالملامح الجادة القوية فى تماثيل سنوسرت الثالث عن شخصيته العسكرية الصـــارمة ، بينما عبروا بالملامح السمحة الرضية فى تماثيل أمنمحعت الثالث عن شخصيته الوادعة المسالمة • ويشهد بمقدرة أولئك الفنانين ودقتهم وصبرهم أنهم استطاعـــوا ابراز أدق الملامح وأعمق خلجات النفس على أكثر الأحجار وعورة وصلابة •

وقد ظهرت روح التطور والتحرر كذلك فى فن التصـــوير ، اذ انطلق الفنانون في ذلك العهد من قيودهم القديمة ، وتركوا القوالب التقليدية التى كان يلتزم بها أسلافهم ، وراحوا يرسمون الصور العائلية والمنـــاظر الحربية وبيئات الصيد والقنص وغـــير ذلك من مجالات الحياة فى مرونة وحيـوية ممتعة • ويتجلى ذلك على الخصوص فى مقـــابر الأمراء المنحوتة فى سـفح الجبل بالقرب من المنيا •

وقد أبدع فنانو الدولة الوسطى أروع أنواع الحلى ولا سيما العقـــود والأقراط والأساور والتيجان والصولجانات والنياشين ، وقد صـــاغوها من الذهب الخالص وطعموها بالأحجار الكريمة كالياقوت والفيروز ، مستمدين أشكالها وزخارفها من الزهور والطيور والفراشات وكل الكائنات فى بيئتهم • فكانت تضارع فى الجمال والجودة ودقة الصـناعة ورقة المنظر أبدع وأروع



« بعض حلى سنوسرت الثانى وسنوسرت الثالث »
« وهى من الذهب المطعم بالأحجـــار الـكريمة »

ما أنتجه الصائغ الماهر فى عصرنا الحديث • ومن أجمل ما بقى لنـا من آثار ذلك العهد الزاهر درع سنوسرت الثانى وهو لوح من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة • ودرع سنوسرت الثالث وهو كذلك لوح من الذهب يعلوه نسر كبير يبدو محلقا فوق تمثـــالين لأبى الهول ، يضـــمان بين أقدامهما أربعـة من الأسرى • ويعتبر التاج المنقوش على هيئة الزهور المتشابكة الذى كان لاحدى أميرات الأسرة الثانية عشرة من أجمل وأروع التيجان فى العالم •

٦ _ الحياة الاقتصادية

وقد تميز عهد الدولة الوسطى بالرخاء الاقتصادى ، اذ اهتمت الحكومة بتنظيم مياه النيــــل وتوفيرها للرى ، وعنيت بالزراعــة وعملت على النهوض بها • ومن أشهر المشروعات فى هذا السبيل سد الفيوم الذى أقيم فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، فأضاف الى الرقعة الصالحة للزراعة مساحات شاسعة من الأرض • كما أنه عاون على زراعة الدلتـــا فى وقت التحاريق فضـــاعف المحصول •

كما تقدمت الزراعة فى ذلك العهد وقد عاون على ذلك عناية الملوك بهـــا فضلا عن تشجيع حكام المقاطعات لها فى مقاطعاتهم ، نظرا لشغفهم بحيـــاة الترف وما تتطلبه من مصنوعات متنوعة • كما كان الأثرياء من أفراد الطبقة الوسطى يحاولون تقليد الملوك والحكام فى هذا المضمار فأصبحت الصناعة فى أوجها ، وقد ساعد كل ذلك على رقيها ورواجها •

وكذلك اهتم الملوك فى ذلك العهـــد بالتجارة وعملوا عـــلى تشجيعها وتوسيع نطاقها ، فحفر سنوسرت الثالث لذلك القناة التى وصلت النيـــل بالبحر الأحمر ، ففتحت الطريق للتجارة مع الصومال وكل بلاد الشـــاطىء الافريقى • كما اتسع نطاق التجـــارة حينذاك مع فلسطين وســـوريا وجزر البحر الأبيض المتوسط والنوبة والسودان • فكانت هذه الأســـواق مصدر خير للبلاد المصرية ، وكانت من أهم عوامل رخائها ونهضتها •

البَابُ الثَّالِثُ

الدَّوْلَةُ الحَدِيثَةُ

الفصل الأول

ملوك الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة

احمس الأول

جلس أحمس الأول على عرش مصر عام ١٥٨٠ قبل الميلاد فكان هو اول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ومؤسس الدولة الحديثة ٠

وكان أحمس الأول من أعظم فراعنة مصر فى كل العصور ، لا لأنه طرد الهكسوس من بلاده فحسب ، بل لأنه كذلك أقام على أنقاض تلك الدولة التى حطمها الهكسوس دولة قوية ثابتة الدعائم شامخة البنيان ، ما فتئت ترتفع قواعدها وتتسع حدودها حتى شملت امبراطورية من أعظم امبراطوريات التاريخ ٠ وكان ذلك بفضل شجاعته وحكمته وحنكته وحزمه ، وبفضل السياسة التى رسمها لحكم بلاده فى الداخل وفى الخارج وسار على نهجها هو وخلفاؤه من بعده ٠

وقد كانت مهمـــة أحمس الأول فى تنظيم الحكومة المصرية وتدعيم الادارة الداخلية للبلاد مهمة شاقة شائكة ، لأنه واجه أمة ممزقة الأوصال متفرقة الصفوف مهيضة الجناح يتسلط عليها حكام فاسدون انتهازيون اختارهم الغاصب الأجنبى ليكونوا واسطته وأداته فى استغلال الشعب واذلاله • فقبض أحمس على زمام الحكم بيد قوية ، وأدار دفته بعزيمة صلبة ، فاحترمه الجميع وهابوه وأحبوه ، ومن ثم أمكنه أن يقود البلاد الى ما رسم لها من أهداف •

واذ رأى أحمس الكارثة التى حلت بالبلاد على يد الهكسوس من جراء ضعفها وتهاونها فى التأهب لغارات أعدائها وغزوات الطامعين فيها ، أنشأ جيشا ضخما ليكون بمثابة الدرع الواقى لها • وكان المصريون قد أدركوا فائدة الجيش بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة ولذة النصر ، فأقبلوا ينخرطون فى سلكه ، وظلوا يزيدونه عددا واستعدادا حتى أصبح قوة هائلة ترهب الأعداء وترعب قلوب الطامعين •

وقد حكم أحمس الأول مدة تقرب من اثنين وعشرين عاما أرسى فيها قواعد الدولة وأعاد للبلاد وحدتها وقوتها ، ثم مات فى عام ١٥٥٧ فخلفه ابنه أمنحتب الأول •

أمنحتب الأول

ولم يكد أمنحتب الأول يجلس على العرش حتى ثار النوبيون محاولين الاستقلال عن مصر ، فسار اليهم على رأس جيشه وأخضعهم ووطد سلطان مصر فى بلادهم حتى الشلال الثانى ، وبذلك عادت حدود مصر الى ما كانت عليه فى عهد الأسرة الثانية عشرة •

بيد أنه لم يكد أمنحتب يفرغ من النوبيين حتى دهم البلاد خطر جديد ،

اذ أغار الليبيون على غرب الدلتا واستولوا على بعض جهاتها ، فأسرع اليهم وشتت شملهم ٠

وبعد ذلك وجه أمنحتب الأول جيشه الى آسيا فوصل فى فتوحه الى شمال الشام ونهر الفرات ٠

وقد شيد هذا الملك مبان عظيمة فى طيبة ، ولكنه لم يلبث أن توفى فى السنة العاشرة من حكمه فخلفه « تحتمس الأول » ٠

تحتمس الأول

وقد سار تحتمس الأول سيرة سلفيه فى الفتح والغزو ، فقام بمحاربة النوبة وأخضعها حتى الشلال الرابع ، وكان أول فرعون يصل الى اقليم دنقلة الذى هو جنة أعالى النيل ٠ وقد شيد هناك قلعة لا تزال آثارها باقية الى اليوم ، وترك فيها حامية مصرية لتوطيد سلطان مصر فى تلك البلاد ، كما عين عليها حاكما يحكمها باسمه ٠

وبعد ذلك اتجه تحتمس الأول الى فلسطين وسوريا فأخضعهما ، وكان يسكنهما العبرانيون والكنعانيون ، ويقيمون فيهما امارات صغيرة مستقلة ، وكان لكل امارة منها معبود يسمونه « بعل » أى الرب أو السيد ٠ وكانت أهم هذه الامارات قادش التى كانت على نهر الأورونت ويقال انها كانت عاصمة الهكسوس ٠ وقد برع العبرانيون والكنعانيون فى الفنون الحربية وصناعة المعادن والأسلحة الصلبة والأوانى المعدنية والملابس الصوفية ، كما أتقنوا فنون التجارة ٠ وقد تقدم تحتمس الأول بجيوشه فى بلادهم دون أن يلقى أى مقاومة حتى وصل الى نهر الفرات فأقام هناك أثرا حجريا سجل عليه أن حدود مصر تمتد الى ذلك المكان ، وحين رأى أمراء سوريا قوة فرعون وقدرته على البطش بهم ، أظهروا خضوعهم له ودفعوا الجزية اليه ، وكانوا

لا يفتأون يرسلون اليه الهدايا الثمينة ، استرضاء له واعترافا بسطوته ٠

وقد أدت هذه الفتوح الى تدفق الأموال على مصر ، فعاون ذلك تحتمس الأول على أن يعاود أعمال الاصلاح فى البلاد ، ومن ثم قام بترميم المعـــابد والهياكل المصرية التى عاث فيها الهكسوس هدما وتخريبا ، وقد أنشأ ساحة كبيرة مسقوفة لمعبد آمون ، تبدأ بصرحين كبيرين ، وتقوم على جوانبها أعمدة بديعة من خشب لبنان ، وتنتصب عند مدخلها أعلام ذات رؤوس من الذهب والفضة ٠ أما باب المعبد فقد صنعه من البرونز الآسيوى البديع ، ووضـــع عليه صورة الاله من الذهب الخالص ٠ كمـــا قام بترميم معبد أوزوريس بالعرابة المدفونة وزوده بالأثاث الفاخر والأدوات الذهبية والفضية ، وحبس عليه أوقافا تدر دخلا سنويا ثابتا ٠

وقد مكث تحتمس الأول فى الحكم نحـــو ثلاثين عاما ، ثم توفى عام ١٥٠١ قبل الميلاد تاركا ثلاثة أبناء ، هم ابنته « حتشبسوت » أو « حاتاسو »، وابنان توليا الملك بعد ذلك باسم تحتمس الثانى وتحتمس الثالث ٠ وقـــد نشب النزاع بين هؤلاء الثلاثة على العرش ٠ وقـــد تداخلت مدد حكمهم ، اذ جلست « حتشبسوت » على العرش ، ثم لم يلبث أن جلس عليـــه تحتمس الثانى ، ولكنه توفى بعد مدة لا تزيد على ثلاث سنوات ، فأراد أخوه تحتمس الثالث أن ينفرد بالحكم ، ولكن أخته حتشبسوت نافسته فى ذلك واستأثرت بالحكم دونه فظل منزويا خامل الذكر طول حياتها ٠

حتشبسوت

وحتشبسوت هى ثالث امرأة عظيمـــة جلست على عرش مصر ، وقد حكمت البلاد اثنين وعشرين عاما قامت خلالها بكثير من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكرها حتى لقد اعتبرها المصريون ابنة الاله آمون ، وقد وردت عـــلى جدران معبدها بالدير البحرى صورة لذلك الاله وهو يخاطب والدتها الملكة

« أحموس » قائلا : « ستحبابين منى بابنة تدعى حتشبسوت وتعتلى عرش مصر وتحكم البلاد كلها بقوة وقدرة » .

وكانت هذه الملكة توجه كل اهتمامها الى المشروعات السلمية ، ومن ثم كان عهدها مصحوبا بالأمن والسكينة ، وقد استتب لها الأمر فى كل أنحاء مملكتها التى بلغت نهر الفرات شمالا وأرض الصومال جنوبا وجبال المغرب غربا ، وبلغت ثروة البلاد فى عهدها حدا لم يسبق له مثيل ، حتى لقد قيل أنها كانت تكيل المعادن النفيسة بالمكاييل الكبيرة كالحبوب . ويعزز ذلك ما رواه « تحوتى » من أنه كان يكدس بين يديها ما يزيد على أربعمائة لتر من خليط الذهب والفضة . ومن ثم ازدهرت فى عهدها كل مرافق الحياة من زراعة وصناعة وتجارة ، كما تقدمت الآداب والفنون .

وقد شيدت الملكة حتشبسوت لنفسها معبدا رائعا هو المعروف بالدير البحرى ، وقد نحتته فى سفح جبال طيبة الغربية ، وجعلت له ساحة عظيمة وثلاث شرفات مدرجة الارتفاع ، أحاطتها بسلسلة من الأعمدة الجميلة ، وغرست حولها حديقة شاسعة من أثمن الأشجار التى جلبتها من الصومال . كما أقامت مسلتين عظيمتين فى معبد الكرنك الذى كان تحتمس الأول قد شرع فى بنائه ، ويزيد طول كل منهما عن سبعة وتسعين قدما ، ولا تزال احداهما قائمة الى اليوم شاهدة على روعة العمارة فى ذلك العهد .

وقد أرسلت الملكة حتشبسوت فى السنة التاسعة من حكمها أسطولا بحريا مكونا من خمسين سفينة ومحملا بالمنتجات المصرية الى بلاد « بونت » . كما كان يحمل تمثالا للملكة أقيم فى تلك البلاد . ثم عاد الأسطول محملا بالذهب والعاج والأبنوس والبخور والأخشاب العطرية والأشجار النادرة وغير ذلك من خيرات الصومال وما يجاورها من بلاد أفريقيا . وقد نقشت الملكة أخبار هذه الرحلة على جدران معبد الدير البحرى .

وكان تحتمس الأول قد نحت مقبرته فى الصخور بواد منعزل خلف جبال طيبة الغربية فى الوادى المعروف الآن بوادى الملوك • وقد فضله كل من جاء بعد تحتمس الأول من ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين لدفن جثثهم ، حتى زاد ما تم اكتشافه من المقابر فى ذلك الوادى عن أربعين مقبرة ، يتبع كل منها معبد • فلما توحيت حتشبسوت دفنت فى ذلك الوادى •

وبعد وفاة حتشبسوت آلت السلطة كلها الى تحتمس الثالث ، فعمل على الانتقام منها بسبب تجاهلها له طوال مدة حكمها ، فمحا اسمها من كل الآثار وقتل كل أتباعها ، ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يحجب عن أنظار العالم عظمتها ، ولا أن يزعزع مكانتها فى تاريخ مصر القديم •

تحتمس الثالث

وحين انفرد تحتمس الثالث بالحكم ظهرت شخصيته وتجلت مواهبه حتى أصبح من أعظم ملوك مصر ، بل من أعظم ملوك العالم القديم كله • فلا شك أنه أول قائد فى العالم أقام أول امبراطورية فى التاريخ ، وقد امتدت مملكته من أعالى الفرات شمالا الى الشلال الرابع جنوبا ، وكان لأسطوله السيادة على شرق البحر الأبيض المتوسط الى ما وراء بحر الأرخبيل •

وكان المصريون قد أخلدوا الى السلام والسكينة بعد عهد تحتمس الأول الذى كان زاخرا بالحروب والفتوح ، ولذلك انقضت فترة طويلة لم تر البلاد الآسيوية خلالها جيشا مصريا ولا أفزعها فرعون مصر بشدته وبطشه ، فتمرد أمراؤها وشقوا عصا الطاعة على مصر بزعامة ملك قادش ، وأعلنوا انفصالهم عن الامبراطورية المصرية ، فما أن تولى تحتمس الثالث زمام السلطة

حتى عزم على فتح تلك البلاد من جديد ، فخرج اليها عام ١٤٧٩ عـــلى رأس جيش عظيم وهناك تجمعت القوات الآسيوية للقائه بقيادة ملك قادش الذى احتل حصن « مجدو » الواقع فى جرزال على المنحدر الشمالى لجبال الكرمل ، فتقدم تحتمس الى ذلك الحصن والتحم عنده بأعدائه وظل يقاتلهم قتالا رهيبا حتى هزمهم شر هزيمة وأجبر قائدهم ملك قادش على الفرار ، وأسر عـــددا



« تحتمس الثالث »

كبيرا من جنودهم واستولى على قدر هائل من أسلحتهم وعتادهم وعجــــلاتهم الحربية وجيادهم وذهبهم وفضتهم ومحصولات بلادهم • ثم واصــــل زحفه شمالا الى منحدرات لبنان الجنوبية فأخضعها وشيد هناك قلعة أطلق عليهـــا اسمه وترك فيها حامية مصرية • ثم توغل بجيشه فى البـــلاد السورية حتى بلغ دمشق فضمها الى مملكته وعاد الى مصر عودة الفـــاتح المنتصر فاستقبله الشعب فى طيبة استقبالا لم تشهد له البلاد مثيلا من قبل • وقد استمرت

احتفالات النصر أياما عديدة عم فيهـــا الفرح • وقد وهب تحتمس الثالث أموالا طائلة لمعبد آمون وأغدق عليه كثيرا من الهدايا والعطايا والغنائم التى جاء بها معه ، اعترافا بفضل ذلك الاله الذى أعتقد انه أسبغ عليـــه رعايته وعنايته ومنحه النصر على الأعداء • ومن ثم أصبح معبد آمون منذ ذلك الحين أغنى معابد القطر •

بيد أن ملك قادش لم يلبث أن استعاد قوته بعد ســنتين من هزيمته واستعد لاسترجاع ما ضاع من مملكته ، فما أحس تحتمس بذلك حتى عقــد العزم على أن يقضى على ذلك الملك القضاء الأخير ، وزحف على الفور بجيوشه الجرارة الى آسيا ، وكان ذلك فى السنة الرابعة والعشرين من حكمه ، مــع احتساب مدة اشتراكه مـــع حتشبسوت • ولكنه بلغ أقصى حــدود مملكته الآسيوية دون أن يصادف أى مقـــاومة ، وانما تقاطر عليه أمراء فلســطين وسوريا مظهرين ولاءهم وخضوعهم ، كما بعث اليه ملك آشور بالهدايا رمزا لخوفه وخنوعه • ولم يجرؤ ملك قادش على التصدى له أو الظهور أمامه فعاد الى مصر • ولكنه ظل يتردد على آسيا فى كل عام لتوطيد سلطانه فيهـــا ، وتأديب المتمردين من أمرائها ، حتى اذا كانت السنة التاسعة والعشرين من حكمه بدأ ملك قادش يبث الفتنة ضده من جديد فأبحر بأسطوله الضخم الى شاطىء فينيقيا وقد حمل معه جنوده وعتاده وبدأ من هناك زحفه فاستولى على مدينة « توتب » وهى بعلبك الحالية ، ومدينة أرواد وهى التى تسمى أرمادا• ولكن الظروف أجبرته حينذاك على العودة الى مصر ، حتى اذا كانت الســنة الثلاثين من حكمه عاد الى فينيقيا وزحف الى قادش فحاصرها بجيشه ، غــير أنه علم فى هذه الأثناء بتمرد بعض الأمراء الفينيقيين فعاد لاخضاعهم • وقد اتجه فى المرة التالية الى نهر الفرات وعبره الى بلاد ميتانى ، وهناك أتى اليه ملوك بلاد ما بين النهرين ، فأظهروا له الخضوع وأحضروا معهم الجزية ، كما انهالت عليه الهدايا من بابل ومن مملكة خيتا وهى بلاد الحيثيين • وقـــد

استمرت حمـــلات تحتمس الثالث على آسيا فاتحـــا أو مؤدبا حتى بلغت سبع عشرة حملة ، استطاع فى نهايتها أن يسحق ملك قادش ويقضى عـــلى مملكته ، ومن ثم أمكنـــه أن يوطد سلطانه فى ممتلكاته الآســـيوية ويؤكد سيطرته عليهـــا ، ويقضى عـــلى كـــل من يجرؤ من ملوكهـــا عـــلى التمرد أو العصيان ٠

وبعد أن فرغ تحتمس الثالث من فتوحاته الآسيوية فى الشمال ، اتجه الى توسيع نطاق مملكته فى الجنوب ، وكان ذلك فى السنة الخمســـين من حكمه ، وقد ناهز السنة الثانية والسبعين من عمره ، فتحركت جيوشـــه الى بلاد النوبة وظلت تتوغل فيها حتى بلغت الشـــلال الرابع ، ومن ثم وصلت حدود بلاده الى أعالى النيل ، وقد عمل على تيسير الاتصال بممتلكاته الجديدة فى الجنوب ، فأعاد حفر القنوات التى تخترق صخور الشلال الأول ٠

وبذلك أصـــبح تحتمس الثالث مسيطرا على امبراطورية شـــاسعة ، فخضعت لقوته آسيا الصغرى وأعـــالى الفرات وجزر البحر الأبيض المتوسط ووديان بابل وشواطىء ليبيا السحيقة وواحات الصحراء وهضبات الصومال وشلالات النيل العليا ٠

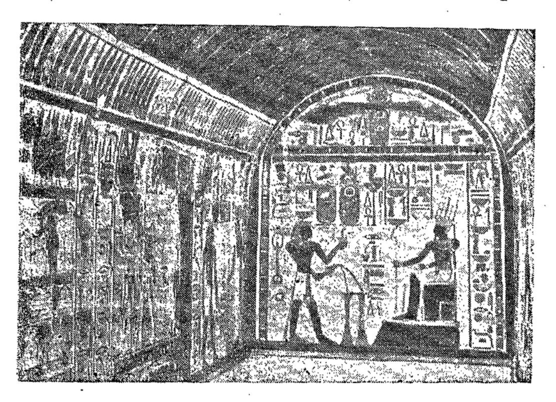
وكان تحتمس الثالث يعود من غزواته محمـــلا سفنه بأروع منتجـــات البلاد التى غزاها وبأبدع مصـــنوعاتها وأثمن مقتنياتها وأنفس تحفهـــا من الأوانى الذهبية والفضية والحلى الدقيقة الصنع المرصعة بالجواهر الـــكريمة والأثاث الفاخر المصنوع من العاج والأبنوس والأسلحة المصنوعة من البرونز والعجلات الحربية المموهة بخليط الذهب والفضة والكميـــات التى لا تحصى من حاصلات الحقول والحدائق والنبيذ المستخرج من أجود أنواع الكروم ٠ وقد اعتاد أهل طيبة أن يروا ملكهم العظيم عائدا كل سنة من غزواته وأسفاره مصحوبا بأحمال هائلة من هذه الغنائم وبالآلاف المؤلفة من الأسرى فى موكب

مهيب يملأ قلوبهم بالرهبة والاجلال ، فيبدو لهم وهو على قمة مجـــده وقد دانت له كل بلاد العالم كأنه الاله ذو القوة والجبروت ٠

وكان تحتمس الثــالث ينتهج فى حكم هـــذه الامبراطورية المترامية الأطراف التى أنشأها ، سياسة ثابتة تنطوى على الحكمة والحنكة والدهاء ، فقد استبعد كـــل الذين لا يتوسم فيهم الولاء من أمراء الممـالك التى غزاها واستبدلهم بآخرين ممن يثق فيهم ويأمن جانبهم ، فضـــلا عن أنه أقام الى جانب أولئك موظفين مصريين يراقبونهم ويرفعون اليه التقارير عن تصرفاتهم، وأبقى الى جانبهم حاميات مصرية ، تمثل قوة فرعون ، وتعمـــل على توطيد سلطانه وسطوته وتبث فى القلوب الرهبة منه والخوف من التمرد عليـــه ، ولكنه مع ذلك احتفظ لكل أمة بالحرية فى تصريف شئونها الداخليـــة ولم يحاول المساس بعقائدها أو تقاليدها أو قوانينها ما دامت تدين له بالولاء ٠ كما رسم للمحافظة على امبراطوريته خطة بعيدة النظر طويلة الأمد يهدف من ورائها الى ربط هذه الامبراطورية بفرعون مصر برباط وثيق ٠ فجرى عـــلى أن يجىء بأبنائها الأمراء الذين يحكمونها ليتلقوا تعليمهم وتربيتهم مع أبنائه فى البلاط الملكى ، حتى يتشبعوا بالحضارة المصرية ويألفوا تقـاليد المصريين ويعرفوا عاداتهم وعقائدهم ، ومن ثم ينشأون على حبهم ، ويذهبون بعد ذلك الى بلادهم فيصبغونها بالصبغة المصرية ، ويظلون حين يتولون الحكم عـــلى اخلاصهم لمصر وولائهم للجالس على عرشها ٠

أما فى الداخل فقد جمع تحتمس الثالث كـل السلطة فى يده ، فكان يشرف بنفسه على كل ادارات الدولة ومرافقها ، وقـد اهتم بكل المشروعات التى تزيد من قوة البلاد وثروتها ونهضتها ، فعمل على توزيع مياه الرى بمـا يكفل توسيع نطاق الأراضى الصالحة للزراعة ، كما عمل على تشجيع الصناعة وتنويع المصنوعات ، واستغلال المناجم بأفضل الوسائل حتى تنتج أكبر قدر من المعادن ٠ واهتم بالتجارة فكانت القوافل المصرية لا تفتأ ذاهبة الى كـل

أنحاء العالم القديم • وكانت السفن المصرية لا تفتأ جائلة بين سواحل البحرين الأبيض والأحمر حاملة المزروعات والمصنوعات المصرية الى البلاد المتاخمة لها ، ثم تعود بحاصلات تلك البلاد ونفائسها ، فازدهرت المعاملات التجارية بين مصر وغيرها من البلاد ، كما انتشرت الحضارة المصرية بجميع مظاهرها على أوسع نطاق • وكذلك اهتم تحتمس الثالث بالمشروعات العمرانية فأقام عددا



« معبد تحتمس الثالث »

لا يحصى من البنايات فى كل أنحاء البلاد وعلى امتداد وادى النيل ، ولا سيما فى دندرة وقفط والكاب وادفو وكوم امبو وغيرها • كما بنى مدينة جديدة عند مدخل الفيوم ، وشيد صرحا شامخا فى معبد الكرنك وسورا ضخما حوله ، ونقش على جدران ذلك المعبد أنباء حروبه وفتوحاته وقد وردت بهما أسماء ما يزيد على أربعمائة مدينة من مدن آسيا غزاها وأخضعها لسلطانه • ولا تزال المسلات التى أقامها ذلك الملك تبهر أنظار العالم وتتنافس على اقتنائها أكبر الأمم وهى منصوبة اليوم فى كثير من عواصم أوروبا وأمريكا •

وحين تقدمت السن بتحتمس الثالث أشرك معه فى الحكم ابنه أمنحتب الثانى ، ولكنه لم يلبث أن توفى فى السنة التالية ، وكان قد بلغ من العمر أربعة وثمانين عاما مكث منها فى الحكم أربعة وخمسين عاما • وكانت وفاته فى عام ١٤٤٧ قبل الميلاد •

وما من شك فى أن تحتمس الثالث هو أبرز شخصية فى تاريخ مصر القديم ، وهو أول رجل فى تاريخ العالم أسس امبراطورية شاسعة مترامية الأطراف ، وقد ظلت هيبته ورهبته كامنة فى قلوب الأمم التى سيطر عليها ما يزيد على ثلاثة قرون • وكان هذا الملك نموذجا نادرا من الملوك ، ذا نشاط لا يخمد ، وقدرة على العمل لا تكل ، وكفاءة فى قيادة الجيوش وادارة الحكومات لا تدانيها كفاءة • وكان حاد الذاكرة ، عالى الهمة ، لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من شئون مملكته ، ولا تعرض له مشكلة الا تصدى لحلها بنفسه • ولذلك أصبح له فى قلوب رعاياه مكانة لم يبلغها أحد قبله ، وقد أحبوه وهابوه حتى اعتقدوا أن ثمة قوة سحرية فى اسمه فاستخدموه فى الأحجبة والطلاسم لتحقيق ما يريدونه من حاجات ورغبات • ولا زال هذا الملك العظيم موضع اعجاب واجلال العالم كله •

امنحتب الثانى

وحين بلغ بلاد آسيا نبأ وفاة تحتمس الثالث شقت عصا الطاعة على مصر ، وظنت أن الفرصة قد سنحت للتملص من سلطانها • ولكن أمنحتب الثانى واجه ذلك الخطر ببسالة تشبه بسالة أبيه فزحف الى آسيا عام ١٤٤٧ قبل الميلاد وهزم أعداءه شر هزيمة ، وواصل سيره شمالا الى بقعة تبعد عن البقعة التى وصل اليها أبوه من قبل حيث أقام نصبا حجريا هناك ، ثم عاد الى منف محملا بالغنائم ومعه آلاف الأسرى • ونظرا للشدة التى أظهرها مع أعدائه هابته المستعمرات الآسيوية فلم يتجاسر أحد على التمرد عليه طوال

مدة حكمه ، وبذلك حافظ على امبراطورية أبيه ووطد سلطانها •

وقد قام أمنحتب الثانى بكثير من المشروعات العمرانية فى مصر فشيد معبدا على شاطىء طيبة الغربى ورمم معبد الكرنك وأتم بناء المعابد التى كان أبوه قد شرع فى اقامتها فى جنوب الوادى •



« أمنحتب الثانى فى هيئة أبى الهول »

وقد توفى أمنحتب الثانى عام ١٤٢٠ قبل الميلاد بعد أن حكم حـــوالى ستة وعشرين عاما ودفن كأســـلافه فى وادى الملوك بطيبة ، ولا تزال جثته محفوظة الى الآن • وقد جلس على العرش بعده ابنه تحتمس الرابع •

تحتمس الرابع

وفى بداية عهد تحتمس الرابع شبت ثورة فى آسيا كما حـــدث فى بداية عهد أبيه فسار على رأس جيشه وأخضع الولايات الثـــائرة ، وفرض

عليها جزية عظيمة ، ثم عقد معاهدة صداقة مع ملك الحيثيين وتزوج ابنته ، كما عقد معاهدة صداقة مع مملكة بابل • بيـــد أنه لم تلبث أن شبت ثورة أخرى فى النوبة فذهب كذلك وأخمدها •

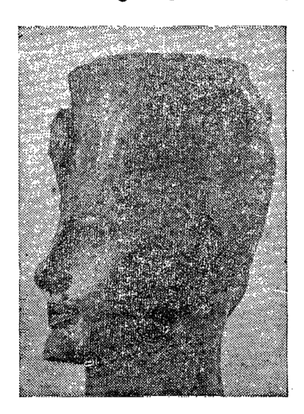
ومن الآثار الباقية لهذا الملك مسلة تعتبر من أضخم المســلات المصرية اذ يبلغ ارتفاعها مائة وخمسة أقـــدام ، وهى منصـوبة الآن أمام اللاتيران بمدينة روما •

وقد توفى تحتمس الرابع عام ١٤١١ قبل الميلاد ، بعد أن حكم ثمانية سنوات ، فخلفه ابنه أمنحتب الثالث •

أمنحتب الثالث

ويعتبر أمنحتب الثالث من أعظم فراعنة الامبراطـــورية المصرية ، وقد بلغ بمصر أعلى درجات القوة والحضارة ، وتوطد سلطانه فى آسيا فخضع له الآسيويون فى استكانة واستسلام ، ولم يحاولوا التمرد عليه ، بل اجتهدوا فى التقرب اليه واكتساب رضاه عنهم وعطفه عليهم ، ولا ســيما أن أمراءهم كانوا قد تلقوا تعليمهم وتربيتهم فى بلاط مصر فنشأوا على حبهـا والاخلاص للجالس على عرشها • ومن مظاهر الخضوع والولاء التى كان يبديها أولئك الأمراء لفرعون ما ورد فى رســـائلهم التى كانوا يبعثون بهـا اليه ، والتى لا زالت باقية الى اليوم • وقد خاطب أحدهم فيهـــا فرعون قائلا « سيدى ومليكى ومعبودى وشمسى • أنا خادمك أبيملكى ، أسجد عنـد قدمى سيدى سبع مرات ، وســـبع مرات أنكفىء عـــلى وجهى ، فأنا الأديم تحت نعليك يا مولاى » • وخاطبه أمير آخر قائلا « اننى أسجد عند قدمى جـلالة فرعون مصر على وجهى وظهرى » • وقال ثالث « أنا المقعد الذى تجلس عليه والمسند الذى تطأه قدماك » ، بل قال رابع « أنا كلبك الأمين » • وقد شمل فرعون برعايته أولئك الأمراء ، ولكن كلمة واحدة منه كانت تكفى لعزل أى واحـد

منهم • وكانت بابل وأشور وميتانى وقبرص وغيرها من أقوى الدول تتنافس على خطب ود فرعون والتمسح بأعتابه ومشاورته والانصياع لمشيئته ، ومن ثم كان قصر فرعون هو مركز الاتصال بين ملوك ذلك العصر ، وكان هذا هو أول مظهر للمجتمع الدولى فى التاريخ • وقد توثقت الصلات بين أمنحتب الثالث و « شوترانا » ملك ميتانى فتزوج من ابنته « جيلو خيبا » ، وحين



« أمنحتب الثالث »

حضرت الى مصر جاءت معها بحاشية تبلغ أكثر من ثلاثمائة سيدة وخادمة • ثم بعد أن توفى « شوترانا » وجلس على العرش من بعده ابنه « وشراتا » كان له ابنة اسمها « تاروخيبا » فبعث بها الى أمنحتب الثالث ليزوجها لولى عهده أمنحتب الرابع الذى أصبح اسمه بعد ذلك اخناتون •

وقد ازدهرت مصر فى عهد أمنحتب الثالث بصورة لم يسبق لها مثيل، نظرا لاتساع امبراطوريتها وكثرة مواردها ووفرة الخيرات التى كانت تنهمر

عليها من كل جانب ، ورواج تجارتها فى كل أنحاء العالم القديم • وقد كانت القوافل البرية والأساطيل البحرية لا تفتأ رائحة غادية بين مصر وجاراتهـا حاملة اليها الحاصلات المصرية ومحملة فى عودتهـا بكل ما زخرت به تلك الجارات من المزروعات والمصنوعات وبدائع التحف وروائع الفنون • ومن ثم أصبحت مصر ولا سيما الدلتا سوقا كبيرة لتجارة العـالم ، ومركزا عظيما لتبادل الثقافات ومظاهر الحضارة المختلفة • وقد شعر سكان البحر الأبيض المتوسط فى ذلك العهد أكثر من أى عهد مضى بنفوذ مصر وحضارتها ، فظهرت فى كريت العقائد الدينية المصرية ، كما ظهر تأثير الكتابة المصرية فى الخط الذى استخدمته كريت قبل أن تستخدم اللغة اليونانية • وكان الفضـل فى انتشار المدنية المصرية فى كريت وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط فى ذلك العهد يرجـع الى اليونانيين الذين كانوا يعرفون عند المصريين باسـم « خفتيو » ، والذين كانوا يفدون الى مصر زرافات ، حتى أصبحت رؤيتهم فى شـوارع طيبة أمرا مألوفا • وقد تأثروا بالحضـارة المصرية فى فنونهم وصناعاتهم ، وكان لهم أثر كبير بدورهم فى الفنون والصـناعات المصرية ، فكان لهذا كله أكبر الأثر فى نهضة مصر وثروتها ورخائها • وقد ظهرت المدن المصرية ولا سيما طيبة فى أروع مظهر وأبدع زينـة ، بشوارعها الواسـعة وقصورها الفخمة ومعابدها الضخمة وحدائقها الغناء وأسواقها الزاخرة بكل أطايب الحياة وأسباب التأنق والرفاهية •

وقد شجع أمنحتب الثالث العمارة فنبغ كثير من المهندسـين ، ومن أشهرهم فى عهده المهندس « أمنحتب » الذى ظلت مهارته وحكمتـه مضرب الأمثال طوال التاريخ المصرى القديم وأدرج المصريون روائع حكمتـه ضمن « أمثال السبعة الرجال العظام » فى العهد اليونانى بعد موته بنحـو ألف ومائتى عام • وقد ابتكر المهندسون المصريون فى عهد أمنحتب الثالث طرازا جديدا فى البناء يأخذ بالألباب ، فأقاموا العمارات الضخمة التى بهرت العقول

بحجمها وهندستها ، وأدهشت العلماء الفرنسيين بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام ، فقرروا أنها أصل العمارة اليونانية ذات الأعمدة •

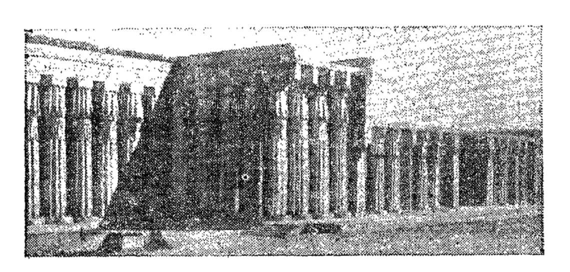
وكان ثمة فى ضواحى طيبة وقتئذ معبد صغير للاله آمون من آثار الأسرة الثانية عشرة ، فهدمه أمنحتب الثالث وأقام فى مكانه معبدا جديدا هو المعروف اليوم بمعبد الأقصر ، وكان عبارة عن بهو عظيم تحيط به حجرات



« امنحتب الثالث »
« فى حماية آمون على هيئة كبش »

عديدة وينتصب أمامه ايوانان بديعان يحتويان على أروقة ذات أعمدة رائعة • وكان الايوان الأمامى منهما منصوبا على صفوف من الأعمدة المرتفعة على جانبى محوره ، تحف بها صفوف أخرى من الأعمدة الأقل ارتفاعا ، ومن ثم كان سقف محور الايوان أكثر ارتفاعا من سقف جانبيه • فكان هذا هو الطراز الذى لا زالت الأمم المتحضرة حتى اليوم تتخذه فى بناء عمائرها الكبرى •

وقد اقام امنحتب الثالث كذلك صرحا شامخا أمام معبد الكرنك ونصب على جانبيه شـــواهد حجرية مطعمة بمقادير عظيمة من الذهب والفضـــة واللازورد والملاشيست وأنشأ طريقا فسيحا من شاطىء النيل الى هذا الصرح وأقام على جانبيه مسلتين عظيمتين ينتصب أمامهما تمثـال ضخم للملك يبلغ ارتفاعه سبعة وستين قدما • كما أنشأ طريقا آخر يصل بين معبدى الكرنك والأقصر تحف به حدائق شاسعة وينتصب على جانبيه صـفان من التماثيل



« أعمدة معبد الأقصر »

التى يشبه جسم كل منها جسم الأسد • وأما رأسه فتشبه رأس الـكبش ، ولذلك يسمونه اليوم « طريق الكباش » •

والى الجنوب من معبد الكرنك أقام أمنحتب الثالث معبـــدا آخر للالهة « موت » معبودة طيبة ، وأنشأ بجواره بحيرة مقدسة • وكان هذا المعبد آية فى روعة البناء وجمال الفن ، ولم يبق منه الا تمثالان للملك ، يسمونهمـــا اليوم « تمثالى ممنون » •

كما أقام ذلك الملك لنفسه قصرا فخما فى طيبة بلغ تصميمه وتأثيثه وزخرفة جدرانه وتزيين حجراته وأبهائه درجة من البراعة الفنية لم تبلغهـــا



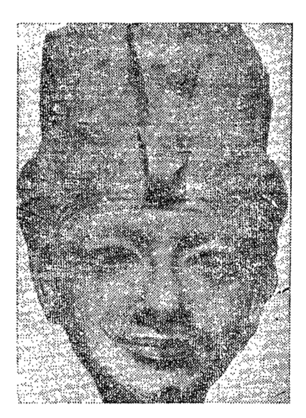
« طريق الكباش »



« تمثالا ممنون »

مصر القديمة فى أى عصر من عصورها السابقة ، وقد أنشأ فى مواجهة ذلك القصر بحيرة عظيمة يبلغ طولها أكثر من ميل .

بيد أنه حدث فى أواخر عهد هذا الملك العظيم أن تعرضت البـــلاد لتهديد خطير ، عكر عليها صفو السلام الذى تمتعت به زمنا طويلا . وذلك أن الحيثيين الذين كانوا يحكمون فى آسيا الصغرى شنوا الغـارة على بلاد



« الالهة موت »

« الميتانى » حتى اذا رسخت أقدامهم فيها تطلعوا الى الاستيلاء على أملاك مصر فى شمال سوريا . كما أن بعض القبائل الآسيوية راحت تهاجم فلسطين . ومن ثم اشتد الاضطراب فى كثير من أنحـــاء الامبراطورية المصرية . فما أن تأهب امنحتب الثالث لمواجهة هذه الأعاصير التى بدأت تهب على مملكته حتى عاجلته المنية فتوفى عام ١٣٧٥ بعد أن استمر فى الحكم نحو ســتة وثلاثين عاما ، وقد دفن بوادى الملوك فى طيبة .

امنحتب الرابع (اخناتون)

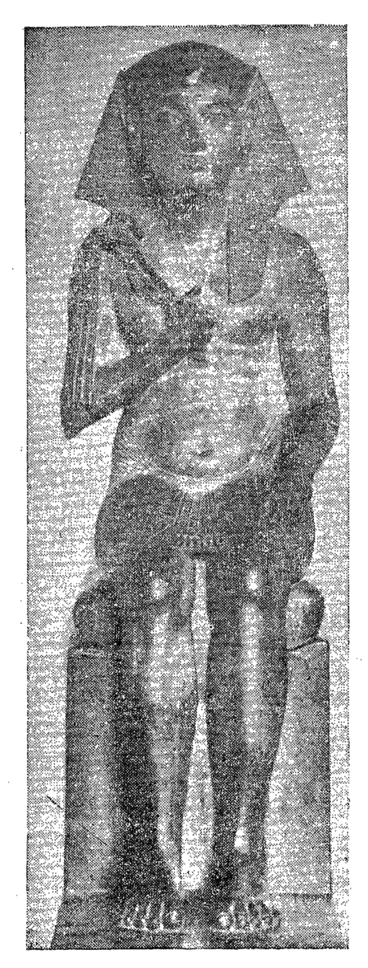
وبعد موت أمنحتب الثالث خلفه ابنه أمنحتب الرابع ، وكان حكيما شديد الذكاء مرهف الحس يميل الى البحوث الدينية والفلسفية • وقد أدرك بفكره الصافى وفؤاده الصادق ما أصاب الديانة المصرية على يد الكهنة من تشويه وتعقيد جعل المصريين يعبدون آلهة عديدة بعد أن كانوا يعبدون الله الواحد ، فأعلن الثورة على الكهنة وما ابتدعوه من معتقدات ، ونادى بأنه لا يوجد الا اله واحد لا اله غيره ولا ينبغى أن تكون العبادة الا له ، وراح يكافح فى سبيل التبشير بعقيدته تلك ويتحمل من أجلها المتاعب والآلام كأنه نبى أو رسول ، وقد ضحى من أجلها بكل شىء ، حتى بامبراطوريته العظيمة ، ثم استشهد فى سبيلها آخر الأمر •

وقد اعتقد هذا الملك أن أبرز صفات الله الواحد هى أنه مانح الحياة ، كأنه أشعة الشمس التى تبعث الدفء وتبث الحياة فى الكائنات ، فرمز له بقرص الشمس الذى يرسل أشعته الى الأرض كأنها أذرع تقبض فى أيديها على مفتاح الحياة • وكان هذا الملك الفيلسوف عميقا فى فكرته وعقيدته فلم يقل كما قال كهنة رع وغيرهم من أتباع المذهب الشمسى أن الله هو الشمس ، وانما قال أن الله هو رب الشمس • وبذلك عاد الى العقيدة المصرية الحقيقية وأعاد اليها ما كانت تتضمنه فى الأصل من الايمان النابع من أعماق الوجدان بأن لهذا الكون الها واحدا ، هو فوق كل شىء ، وهو أقوى من كل شىء ، وهو والذى خلق بقوته كل شىء ، وبأن كل ما فى هذا الكون من الكائنات مهما كان من ضخامتها أو خطرها أو شدة أثرها فى حياة الناس ، ليست الا مظاهر لقوة الله ، لأنها من صنع يديه •

فلم يكن اله الكون اذن هو حوريس أو أوزوريس أو رع أو آمون أو غيرهم من الآلهة الذين جعلهم الكهنة أداة لتوطيد نفوذهم وتحقيق أغراضهم

وما آربهم ، وانما كان فى اعتقاد هذا الملك هو الله الأوحد الذى كان يعرفه ويتعبد له باسم « آتون » • ومن ثم أنكر كل الآلهة الأخرى ، وقرر أن يقضى عليها ويمحو أسماءها • واذ كان آمون فى ذلك الحين هو الاله الرسمى للدولة وكان كهنته أصحاب النفوذ الأقوى فى كل البلاد بدأ باعلان الحرب عليه فطمس اسمه على كل الآثار والمعابد والتماثيل ، حتى أن اسمه هو ذاته وهو « أمنحتب » اذ كان مقترنا باسم آمون ، نبذه واتخذ له اسما جديدا يقترن باسم « آتون » وهو « اخناتون » ، وجرد كهنة آمون من كل ممتلكاتهم، ومنعهم من التدخل فى أى شأن من شئون البلاد • ومن ثم كان عليه أن يخوض غمار حرب رهيبة طويلة الأمد مع أولئك الكهنة الأقوياء ذوى التاريخ القديم والنفوذ الراسخ فى البلاد ، الذين رأوه يهوى بمعوله على الهيهم فيحطمه ، وعلى قوتهم فيسلبهم اياها ، وعلى ثروتهم فيحرمهم منها ، فوقفوا فى وجهه وقاوموه بكل ما لهم من سطوة وعتاد ، وبكل ما فيهم من دهاء وعناد ، ولكنه كان صلبا قوى الشكيمة ماضى العزيمة ، فمضى فى طريقه يكيل لهم الضربات وقد اعتزم أن يقضى عليهم القضاء الأخير •

وأقام اخناتون معبدا ضخما لآتون فى حديقة آمون التى انشاها والده بين معبدى الكرنك والأقصر ، وسماه « نور آتون العظيم » ، وخصص له أوقاف معبد آمون ، كما قام بتشييد ثلاثة مراكز لعبادة آتون فى كل قسم من أقسام الامبراطورية وهى مصر والنوبة وآسيا ، وجعل اسم عاصمة البلاد وهى طيبة « مدينة نور آتون » • بيد أنه فى السنة السادسة من حكمه اعتزم — زيادة فى تكريم آتون — أن يبنى له مدينة جديدة تكون رمزا لعبادته وعاصمة للبلاد ، فاختار لذلك موقعا — نعرفه اليوم باسم تل العمارنة — أقام فيه تلك المدينة وسماها « أخيتاتون » ، وأنشأ فى وسطها ثلاثة معابد ضخمة ، تحيط بها مجموعة من القصور الفخمة للملك والأمراء ، ثم انتقل اليها مع أسرته وعظماء دولته فى موكب عظيم ، وافتتحها باحتفال دينى توجه



« اخناتون »

فيه بالشكر الى آتون ، قائلا عن المدينة الجديدة « انها بيت أبى واهب الحياة الأزلى » .

وقد كتب اخناتون تعاليم ديانته على جدران المعابد التى شيدها ، وكان يتعبد للاله الواحد آتون ، مرددا ترانيم يقول فيها « يا آتون الحى . أنت الموجود منذ الأزل . أنت عال ولكن أشرك واضحة أمام عيون خليقتك . ورغم أنك قائم بين البشر ، فان خطواتك خفية عنهم . أنت جميل وعظيم ومتلألىء . وحينما تغيب فى أفق السماء الغربى تظلم الأرض وكأنها قد حل بها الموت ، ويخرج الأسد من عرينه ، وتدب الزواحف لتلدغ ، ثم حين يتالق بهاؤك فى المشرق تضىء الأرض ، ويستيقظ الناس ، ويرفعون أكفهم متعبدين لطلعتك ، ثم يخرجون لأعمالهم ، والسفن تقلع ، والسمك يسبح فى النهر . وما أكثر أعمالك الخافية على الناس أيها الاله الأوحد ،لاشريك لك . وقد خلقت الأرض حسب رغبتك . أنت تودع الطفل فى بطن أمه وترعاه قبل أن يولد ، وتمنح النفس للفرخ فى البيضة ، وتقدر له موعدا ليخرج منها ، فيخرج فى موعده الذى قدرته له ، ثم يمشى فى التو على قدميه . وحين كنت وحيدا ولا شىء غيرك خلقت الناس وكل ما على الأرض . خلقت ما نرى وما لا نرى . وما أكثر مخلوقاتك التى لا نحيط بها ولا تقع عليها أبصارنا . وقد خلقت بنى الانسان ذوى ألوان مختلفة وألسنة متعددة ، فسبحانك ما أعظم قدرتك . أنت سيد الجميع ، وأنت رب كل قطر . ما أكرم مقاصدك يارب الأبدية ، وما أبدع أعمالك أيها السيد الأزلى . ان العالم يعيش بصنيع يديك ، والناس يحيون بواسطتك ، وأعينهم لا ترى الا جمالك ، أيها الاله الذى خلق نفسه بنفسه . ان حبك عظيم وأنت الأب والأم لكل خليقتك . أنت فى قلبى فلا يعرفك سوى ابنك اخناتون ، العائش فى الحق » .

ومن هذا النشيد يتضح مدى ادراك اخناتون لحقيقة الله ووحدانيته وقدرته ورحمته ، وقد اعتبره أبا لكل خليقته ، يعطف عليها ويرعاها عطفا

الأب ورعايته لأبنائه • ولذلك قال العلماء عن اخناتون أنه أقدم رسـول فى التاريخ البشرى ، وأن مذهبه أقدم عقيدة تنطوى على التوحيد فى التاريخ • وذلك فضلا عن مناداته بالمثل العليا فى الحيوة وتمسكه بالفضيلة والعـدالة والحق ، وقد اعتاد أن يردف اسمه بعبارة « العائش فى الحق » • وكان هو أول من بشر بالمساواة بين الناس ، وكانت ديانته أول صيحة لتحرير الانسان من القيود التى كبلته طوال أجيال عديدة فى حياته الدينية والفكرية والفنية• وقد اعتقد أن أفضل أنواع الحياة وأقربها الى التقوى والحق ، هى الحيـاة البسيطة المعتدلة البعيدة عن التكلف والاصطناع والتعالى المفتعـل • فأظهر نفسه لرعيته ، وكان يبدو فى الحفلات مع زوجته وأطفاله كأنه انسان بسيط ، مع ما كان للملك فى تلك العصور من هيبة ورهبة فى النفوس ترتفع به الى مصاف الآلهة •

وقد كان لروح التحرر التى بثها اخناتون أكبر الأثر فى نفوس المصريين جميعا ، وفى كل نواحى الحياة المصرية ، وقد انعكس هذا الأثر علىالخصوص فى الفنون ، اذ كان هذا الملك يعتقد أن كل ما أبدعه الله فى الطبيعة صـالح وصادق وجميل ، فبذل الفنانون كل ما فى مقدرتهم ، واستغلوا كل طاقـات موهبتهم فى محاكاة الطبيعة محاكاة أمينة لا اصطناع فيها ولا افتعال ، ومن ثم انطلقوا من عقال التقاليد والقوالب الفنية التى ظلوا مكبلين بها طوال الأجيال الماضية واندفعوا يستخدمون براعتهم الفطرية فى حرية كاملة ، لا حـوائل فيها ولا قيود ، فبرعوا فى كل ما صنعوا ، وأبدعوا كل ابداع • وقد ذاع صيت فنهم بين فنون التاريخ القديم كلـه ، وامتاز بالبسـاطة والوضوح والصدق •• ويتجلى كل ذلك فى المقابر التى أقامها اخناتون لنفسه وللمخلصين من أتباعه ، وقد زخرت جدرانها بالرسوم التى تمثل الحيـاة اليومية أدق تمثيل ، وقد بدا فيها اخناتون نفسه خاليا من كل مظاهر التكلف التى كانت تبدو فى صور الفراعنة السابقين ، كما خلت تلك الرسوم من المناظر المفزعة

التى كانت تزخر بها المقابر قبل ذلك ، والتى تمثل ما فى الجحيم من زبانية ووحوش بشعة ، وخلت من التعاويذ السحرية والتعازيم الغامضة التى كان يبتدعها الكهنة للانتصار فى زعمهم على الأعداء فى الآخرة • فكان ذلك دليلا على أن ديانة اخناتون كانت من الرفعة والسمو بحيث تملصت من نفوذ الكهنة وتخلصت مما كانوا يذيعونه من خرافات •

وهكذا استطاع اخناتون أن يحدث انقلابا خطيرا فى عقـــائد المصريين وأفكارهم ومشاعرهم • بيد أنه ـ اذ قصر كل جهوده على نشر الدين الجديد والتبشير به بين الناس ـ لم يتسع وقته للنظر فى شئـــون الامبراطورية العظيمة التى بذل أجداده مجهودات ضخمة فى انشائها وتنظيمهـــا وتدعيم سلطانهم فيها • وقد شغله التأمل والتعبد عن الأخطار التى كانت تحيط بتلك الامبراطورية فى ذلك الحين : فقد كانت قوة الحيثيين لا تفتأ تزداد ويشتد خطرها على الحدود الشمالية • وقد انتهزوا فرصة انهماك اخناتون فى الشئون الدينية فراحوا يغيرون على أملاك مصر حتى تمكنوا من الاستيلاء على جزء كبير من سوريا وفينيقيا • كما أغارت القبائل الآسيوية على فلسطين وسيطرت على معظم أراضيها • ومن ثم توالت رســـائل أمراء تلك الجهات الى اخنـــاتون يستنجدون به فيها ويستحثونه على صد المعتدين ورد غارات المغيرين • ولكنه كان فى شاغل عنهم ، ولم يرد على رسائلهم ، فلم يسع أولئك الأمراء الذين كانوا موالين لمصر حتى ذلك العهد الا أن يشقوا عصا الطاعة ويعلنوا استقلالهم عنها ، أو يستسلموا للغزاة الفاتحين • وكان من نتيجة ذلك أن ضـــاعت الممتلكات المصرية فى آسيا كلها • وهكذا بينما كانت أرجاء معبد آتون تردد صدا الأناشيد التى يرتلها اخناتون وأتباعه ، كانت الامبراطورية المصرية فى الطريق الى الزوال والفناء •

ولم يكن ضياع ممتلكات مصر فى آسيا هو الخطر الوحيد الذى احدق باخناتون ، فقد تفاقمت من حوله المشاكل والصعوبات فى مصر ذاتها ، اذ كان

قد ترك شئون السياسة الداخلية فى يد أمه الملكة « تى » وزوجته الملكة « نفرتيتى » ، وكان يعتمد عليهما اعتمادا تاما حتى أنه لم يكن يظهر لرعيته الا معهما • ولكن العلاقة لم تلبث أن ساءت بينه وبين نفرتيتى فاضطربت أحواله واضطر أن يشرك معه فى الحكم زوج ابنته « ساكرع » ، غير أن الحالة مع ذلك ازدادت سوءا • وقد انتهز الكهنة الفرصة ، فجمعوا صفوفهم يتزعمهم كهنة آمون ويملأ قلوبهم الحقد على اخناتون ، اذ قضى على آلهتهم وجردهم من نفوذهم ، وراحوا يبثون الفتنة ضده ويوغرون صدور الناس عليه • وقد ساعدهم على ذلك أن رجال الجيش كانوا قد عز عليهم أن يروا الامبراطورية التى بذل آباؤهم وأجدادهم الدماء فى تكوينها تنكمش وتنهار ، فانضموا الى زمرة الساخطين ، ومن ثم كثرت المؤامرات ، وانتشرت الدسائس فى طول البلاد وعرضها • وقد أوفد اخناتون زوج ابنته « ساكرع » لتهدئة الخواطر فى طيبة وكانت هى مركز الثورة ، ولكنه فشل فى ذلك وما فتئت الدائرة تضيق من حول اخناتون وقد تكاثر أعداؤه وتضافروا للقضاء عليه • ولكنه ظل يقاوم ويداوم على التبشير بديانة آتون حتى تمكن أعداؤه من القضاء عليه فذهب شهيد عقيدته وانطفأ بموته ذلك السراج الذى أضاء بنوره ظلام العصور الغابرة ، ولكن ذكراه لم تنطفىء ، وانما ظلت تضىء صفحات التاريخ على مدى الأجيال بأسمى معانى الحكمة والفضيلة والكمال •

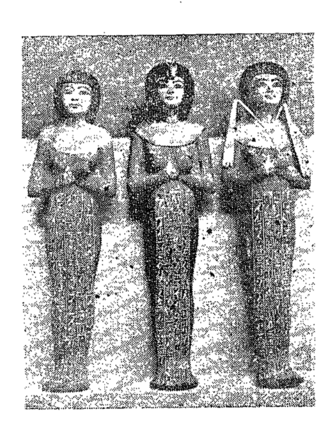
وقد قضى اخناتون فى الحكم تسعة عشر عاما • ثم جلس على العرش من بعده زوج ابنته « ساكرع » •

ساكرع

ولم يستمر ساكرع على العرش طويلا ، اذ يبدو أنه ظل وفيا لعقيدة آتون التى تلقاها عن اخناتون ، فدبر الكهنة مؤامرة تمكنوا بها من قتله ، فجلس على العرش بعده « توت عنخ آتون » •

توت عنخ آتون (توت عنخ آمون)

وكان « توت عنخ آتون » أى « الصورة الحية لآتون » هو زوج الابنة الثانية لاخناتون المسماة « عنخ سنب آتون » أى « العائشة بقوة آتون » . وكان « توت عنخ آتون » حين جلس على العرش صبيا لا يتعدى الحادية عشرة

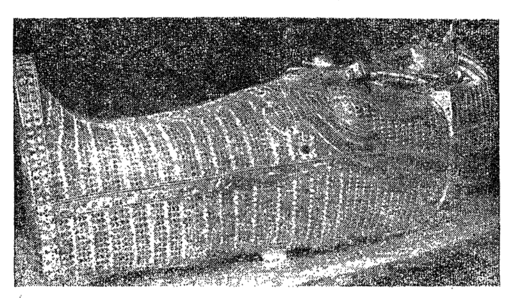


« تماثيل جنائزية دقيقة من تحف توت عنخ آمون »

من عمره ، ومن ثم سنحت الفرصة التى كان يترقبها كهنة آمون لاسترداد مكانتهم ، واسترجاع ما ضاع من نفوذهم ، وسرعان ما تمكنوا من السيطرة على الملك الصغير ، وأجبروه على ترك « أخيتاتون » مركز عبادة آتون والعودة الى طيبة ، كما أجبروه على العودة الى عبادة آمون وتغيير اسمه وهو « توت عنخ آتون » الى « توت عنخآمون » . ثم افتتح الملك بنفسه أكبر أعياد آمون الذى كانوا يسمونه عيد « أوبت » وأعاد الى كهنة آمون اعتبارهم ، فكان أول مافعلوه

أنهم انهالوا على مدينة « أخيتاتون » ومعابد « آتون » فهدموها ، وأعادوا نقش اسم آمون على المعابد والآثار فى كل أنحاء البلاد .

وقد توفى « توت عنخ آمون » بعد ست سنوات من جلوسه على العرش، ومع أنه لم يقم بأى عمل جليل يخلد ذكره فى التاريخ ، فقد ذاع صيته وطارت شهرته فى كل أنحاء العالم حين تم أخيرا اكتشاف مقبرته فى وادى الملوك ،



« التابوت الخارجى لتوت عنخ آمون »
« وهو من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة »

وذلك بفضل مجموعة التحف النادرة التى زخرت بها تلك المقبرة ، من أثاث فخم ، وأمتعة فاخرة ، وأرائك بديعة ، ومقاعد رائعة ، مطعمة بالعاج ومغطاة برقائق الذهب ، وصناديق من الأبنوس ممتلئة بالجواهر الثمينة والحلى التى لا مثيل لها فى رقتها ورشاقتها ، والعجلات الملكية ، والتوابيت الذهبية ، والتماثيل الفائقة البراعة ، والنواويس الدقيقة الصناعة ، وغير ذلك من النفائس التى بهرت أنظار العالم بروعتها ورونقها وجمالها ، وما تنطق به من مظاهر العظمة والثراء .

وبعد وفاة « توت عنخ آمون » قام الكاهن « آى » زوج مربية اخناتون واغتصب العرش لنفسه ، ولكنه عجز عن الاحتفاظ به واشتدت المنازعات

والمؤامرات بين المتطلعين الى الجلوس على العرش ، وامتدت يد التخريب تعبث بالبلاد وتعيث فيها فسادا ، ومن ثم سقطت الأسرة الثامنة عشرة وعادت البلاد مرة أخرى الى الفوضى والاضطراب .

وقد استمرت الأسرة الثامنة عشرة فى حكم البلاد من عام ١٥٨٠ الى عام ١٣٥٠ قبل الميلاد ، أى نحو مائتين وثلاثين عاما ، استطاعت أثناءها أن تحرر البلاد من ربقة الهكسوس ، وأن تنشىء بعد ذلك أعظم امبراطورية فى العالم عرفها التاريخ القديم .

وقد ظلت الفوضى سائدة بعد سقوط الأسرة الثامنة عشرة حتى ظهر قائد محنك يدعى « حور محب » فاستولى على العرش وأسس الأسرة التاسعة عشرة .

الأسرة التاسعة عشرة

حور محب

كان « حور محب » هو القائد الأعلى للجيش فى عهد اخناتون ، وقد ساءه ما حل بالامبراطورية فى عهد هذا الملك من دمار وانهيار ، بسبب اهتمامه بشئون الدين واهماله لشئون الدولة ، فتزعم الساخطين عليه من رجال الجيش وتضامن مع الكهنة فى العمل على التخلص منه ، حتى اذا سقطت الأسرة الثامنة عشرة واختل الأمن وانتشرت الفوضى فى البلاد تقدم الصفوف وقبض بيده على زمام الحكم ، ثم أعلن نفسه ملكا على مصر عام ١٣٥٠ قبل الميلاد ، بعد أن تزوج احدى أميرات البيت المالك ، لكى يضفى على نفسه الصبغة الشرعية ، فكان بذلك مؤسس الأسرة التاسعة عشرة .

وكان أول ما اهتم به حور محب هو القضاء على ما بقى من آثار عبادة

آتون ، والعمل على تمجيد آمون ، وتجديد ما امتدت اليه يد التخريب من معابده • وقد أعاد الى كهنة آمون مكانتهم ورد اليهم ما سبق أن سلبه اخناتون من أملاكهم •

واذ أدرك هذا الملك أنه لن يتسنى له التصدى لاستعـــادة أملاك مصر الضائعة فى آسيا ما لم تسترد البلاد قوتها الداخلية ، عمل على اجتنـــاب الحروب الخارجية ، فعقد صلحا مع الحيثيين ، وأحسن معاملة النوبيين ، ثم تفرغ لاصلاح ما فسد من حال البلاد فى أواخر عهـــد الأسرة الثامنة عشرة وعكف على اعادة تنظيم ادارتها ، والقضاء على عوامل الظلم والرشوة والفساد التى انتشرت فيها ، فأصدر لهذا الغرض مجموعة من القـــوانين الصارمة ، وسهر على تنفيذها • واهتم بتنظيم المحاكم فى كل أنحاء البـــلاد ، والتزم الحرص فى اختيار القضاة ، وأغدق عليهم المرتبات الضخـــمة كى يكفـــل نزاهتهم وعدالتهم • وأبدى من الرعاية والرفق برعيته والعمل على راحتهـــا ورفاهيتها ما جعله من أعظم الملوك الذين جلسوا على عرش مصر •

وقد أمضى « حور محب » فى الحكم خمسة وثلاثين عاما ، قضاها كلها فى أعمال الاصلاح ، فمهد بذلك السبيل أمام خلفائه كى يستعيدوا للبلاد ما تبدد من قوتها ، ويستردوا ما ضاع من أملاكها • ثم توفى حور محب فى عام ١٣١٥ قبل الميلاد ودفن بمقبرته فى منف ، وجلس على العرش بعده رمسيس الأول •

رمسيس الأول

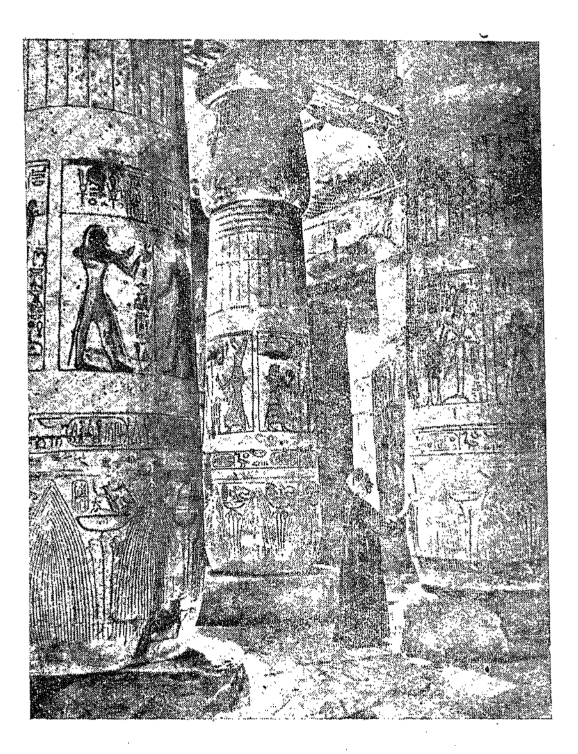
وكان رمسيس الأول حين جلس على العرش طاعنـــا فى السن فلم يستمر فى الحكم أكثر من عامين ، لم يقم خلالهما بعمل جدير بالذكر • وفى أواخر أيامه أشرك معه فى الحكم ابنه سيتى الأول ، ثم توفى عام ١٣١٣ قبل

الميلاد ، فانفرد سيتى الأول بحكم البلاد .

سيتى الأول

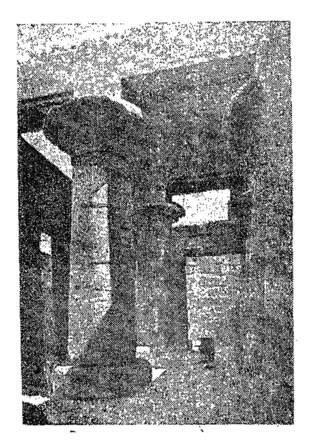
وقد وجد سيتى الأول حين اعتلى العرش أن البـــلاد قد سادها الهدوء والاستقرار ، وعاد اليها النظام واستتب الأمن بفضل اصلاحات « حور محب » فوجه اهتمامه الى استرداد ممتلكات مصر الضائعة فى آسيا . ومن ثم جهز جيشا عظيما فى العام الأول من حكمه واتجه به الى فلسطين فاستولى عليها ، ثم زحف شمالا وعبر نهر الأردن ، ثم زحف غربا وسيطر على جنوب لبنان . حتى اذا عاد الى مصر بعد ذلك استقبله المصريون استقبالا رائعا أعاد الى الأذهان ذكرى الانتصارات الغابرة التى حققها ملوك الأسرة الثامنة عشرة . ثم قـام سيتى الأول بعد ذلك بتأديب الليبيين المتمردين فى غربى الدلتا وصد عـــن البلاد غاراتهم . ثم فى السنة الرابعة من حكمه عاد الى آسيا لمواصلة غزواته وتوطيد سلطته فى سوريا ، فاستولى على مدينة قادش ومملكة آمور ، ثم زحف شمالا حيث هاجم الحيثيين وانتصر عليهم وعقد معهم معاهدةتنازلوا له بموجبها نهائيا عن فلسطين .

فلما فرغ سيتى الأول من فتوحه الخارجية فى آسيا ، تفرغ للاصلاح الداخلى وتوفير النظام والسلام والرفاهية فى بلاده . وقد تابع اصلاح معابد آمون وبنى صرحا جديدا فى معبد الكرنك نقش على جدرانه أخبـــار حروبه وانتصاراته ، كما شيد لنفسه معبدا غربى طيبة يعرف اليوم بمعبد القرنة ، وشيد معبدا آخر بالعرابة المدفونة لثالوث أوزوريس ، ووقف عليه الذهب المستخرج من مناجم ساحل البحر الأحمر ، وقد بلغت العمارات التى شيدها هذا الملك درجة عظيمة من الروعة والجمال . وتعتبر الرسوم المنقوشـــة على جدرانها ــ ولا سيما فى معبد العرابة المدفونة ــ من أبدع أمثلـــة الرسم فى كل عصور مصر القديمة .



« معبد سيتى الأول فى العرابة المدفونة »

وقد استمر سيتى الأول فى الحكم أكثر من عشرين سنة . فلما مات دفن فى المقبرة العظيمة التى أقامها لنفسه فى وادى الملوك . وجلس على العرش بعده ابنه رمسيس الثانى .



« ردهة فى معبد الكرنك »

رمسيس الثانى

ويعد رمسيس الثانى من أعظم فراعنة مصر وأقدرهم وأشهرهم . وقد عمل بمجرد أن تولى الحكم على توطيد مركزه وتدعيم سلطانه فى البلاد ، فاجتهد فى استرضاء كهنة آمون ليضمن ولاءهم له ومساندتهم اياه ، ثم اتجه الى زيادة موارده باستغلال مناجم الذهب ولا سيما فى النوبة ، فحفر الآبار فى الطرق الصحراوية المؤدية اليها لتمد العاملين فيها بالماء ، ومن ثم توافرت له القوة والثروة ، فاتجه بعد ذلك الى تحقيق هدفه الأكبر وهو استرجاع

الامبراطورة المصرية ، واستعادة مجد مصر وسطوتها فى آسيا . وكان الحيثيون فى ذلك الحين قد استولوا على معظم سوريا ، فنقض المعاهدة التى سبق لأبيه سيتى الأول أن أبرمها معهم ، واستعد لقتالهم ، فأعد لهذا الغرض جيشا يتألف من نحو عشرين ألف جندى ، وضم اليه عددا كبيرا من جنود النوبة وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، وقسمه الى أربع كتائب تحمل أسماء الآلهة آمون ورع وبتاح وسوتخ . حتى اذا شعر ملك الحيثيين بالخطر الذى يتهدده راح يجمع الجيوش من كل البلاد المحيطة به وقد انضم اليه ملوك بلاد النهرين وأرواد وقادش ، وبعض الجنود المرتزقة من جزر البحر الأبيض المتوسط وشواطئه ، واستعد الجميع لملاقاة فرعون .

وقد بدأ « رمسيس الثانى » غزو آسيا فى السنة الخامسة من حكمه ، أى نحو عام ١٢٨٨ قبل الميلاد ، وقد اتبع فى ذلك الطريقة التى اتبعها من قبله « تحتمس الثالث » ، اذ كان طريق البحر أسهل وأسرع من طريق البر ،فزحف بأسطوله الى الشاطىء الفلسطينى واستولى عليه كى يجعل منه قاعدةلتحركاته الحربية فى كل الاتجاهات . ثم تقدم على رأس كتيبة آمون ، تتبعه الكتائب الثلاث الأخرى ، ونصب معسكره بالقرب من قادش ، فأرسل اليه ملكها اثنين من الجواسيس أوهماه بأن الحيثيين تقهقروا شمالا الى حلب ،فتقدم نحو قادش بغير حذر ،وكان ملك الحيثيين يكمن هناك ،فما اقتربت منه طلائع جيش رمسيس حتى انقض عليها وقضى على جانب كبير منها . بيد أن رمسيس ما انتبه الى الخديعة حتى اندفع فى بطولة رائعة يخترق بعجلته الحربية صفوف الأعداء ، وظل يقاومهم ويقاتلهم ثلاث ساعات متوالية لا يتراجع ولا يتضعضع، حتى لحقت به بقية كتائبه ، فانقض بها على الحيثيين وهزمهم شر هزيمة وأجبرهم على الفرار من قادش . ثم عاد الى مصر عودة الأبطال الظافرين . وقد كان للبسالة النادرة التى أبداها فى هذه الموقعة أعظم الأثر فى استثارة خيال الشعراء والفنانين ، فجادت قرائحهم بأجمل القصائد والأناشيد التى أشادوا

فيها ببطولة رمسيس ورجولته ، كما جادت بأروع الرسوم التى نقشوها على جدران المعابد فى كل أنحاء البلاد ولا سيما معابد الأقصر والكرنك وأبى سمبل والعرابة المدفونة ، يصورون فيها هزيمة الحيثيين أمام جيش فرعـــون آبدع وأبرع تصوير ·

ولكن الحيثيين لم يلبثوا أن جمعوا صفوفهم واندفعوا يثيرون القـلاقل وينشرون عوامل التمرد على مصر فى الولايات الأسيوية ، فعاد رمسيس اليهم وعاود الهجوم عليهم حتى أخضع بلاد النهرين وشمال سوريا واستولى عـلى عسقلون وتابور وحوران والجليل وقادش وأرواد وقطنة ، وبذلك قضى عـلى دولة الحيثيين فى سوريا ، واستتب له الأمرفى كل ولايات مصرالأسيوية ·وظل بعد ذلك خمسة عشر عاما يشن الحملات التأديبية على كل من يشق عصـــا الطاعة عليه فيها ، حتى مات ملك الحيثيين الذى كان يتزعم أعـداءه فى آسيا وخلفه أخوه فعقد مع رمسيس الثانى معاهدة صلح تتضمن الاتفاق على وقف القتال بين الجانبين ، وعلى قيام كل جانب منهما بمساندة الآخر ومساعدته فى حالة هجوم دولة أخرى عليه · وقد نقشت هذه المعاهدة على لوح من الفضة ، وتعتبر أقدم معاهدة دولية فى التاريخ · وقد تزوج رمسيس بعد ذلك من ابنة ملك الحيثيين ، وعاش بقية أيام حكمه فى سلام وطمأنينـــة يشرف على ادارة امبراطوريته الشاسعة وقد استتب له الأمر فى كل أنحائها ·

وقد رأى رمسيس أنه يتعذر عليه ادارة الامبراطورية من العاصمـــة القديمة « طيبة » لوقوعها فى أقصى الجنوب ، فأنشأ عاصمة جديدة فى شرق الدلتا سماها « بررمسيس » ، ومن ثم أصبحت طيبة مجرد مركز دينى ، ولم يعد فرعون يزورها الا فى الاحتفالات الدينية الكبرى · كما شيد رمسيس فى الدلتا مدينة أخرى سماها « بيتوم » ·

وقد كان من نتيجة السلام الذى ساد بين رمسيس والبلاد الأسيوية ،



« رمسيس الثانى »

أن أخذ عدد كبير من الأسيويين يفـــدون الى مصر ويختلطـــون بالمصريين ويصاهرونهم • وقد اشتغلوا فى بداية الأمر بالتجارة ، ثم عملوا بعد ذلك على الاشتغال فى الوظائف الحكومية وقد تدرجوا فيها حتى لقد أصبح أحدهم رئيسا للبلاط الملكى •

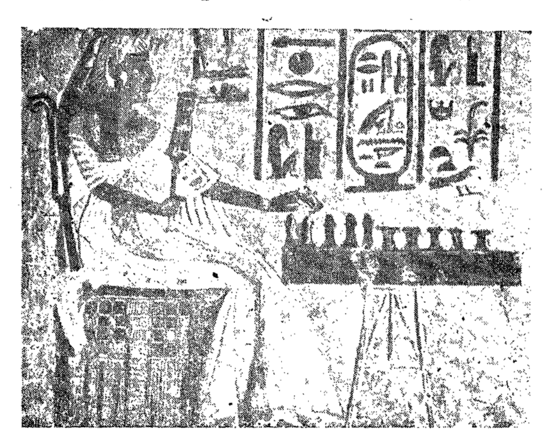


« تمثال رائع لرمسيس الثانى »

وكانت عمارات رمسيس الثانى التى شيدها فى كل أنحاء البــلاد من أضخم وأفخم العمارات المصرية • وقد أنفق على انشائها أموالا طائلة وزينهـا كلها بالرسوم البديعة ذات الألوان الزاهية التى تمثل انتصاراته وأمجــاده الحربية وشجاعته وبراعته فى فنون القتال ولا سيما فى موقعة قادش • ومن أشهر المعابد التى أقامها رمسيس الثانى معبد « الرمسيوم » بطيبــة ، وهو أضخم المعابد المصرية جميعا • وقد أتم هذا الملك بهو الأعمدة الذى بدأه جده

رمسيس الأول بمعبد الكرنك • كما أقام فى النوبة ستة معابد لمعبودات مصر العظمى وهى آمون ورع وبتاح • ويعتبر معبد أبى سنبل أهم وأجمل هذه المعابد وهو منحوت فى قلب الجبل •

وقد أكثر رمسيس الثانى من اقامة التماثيل الضخمة الشامخة التى تثير الدهشة بجمالها وجلالها • ومنها تمثال له يبلغ ارتفاعه تسعين قدما ويزن



« الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى تلعب النرد »

تسعمائة طن ، وتمثال آخر يزن ألف طن ، كما أكثر من اقامة المسلات البديعة فى كثير من أنحاء مصر • وقد نقل الأجانب فى العصر الحديث بعض هذه المسلات الى بلادهم ، وتزدان بها اليوم بعض متاحف أوروبا •

وكان رمسيس الثانى طويل القامة جميل الطلعة دقيق الملامح أنيق الهيأة صلب الرأى ماضى العزيمة شديد الاعتداد بنفسه ، ميالا الى أسباب

الترف والوجاهة والجاه ٠ وقد أكثر من الزوجات فبلغ عدد أولاده مائة وعدد بناته خمسين ٠ وكان هو آخر الفراعنة العظماء العاملين على رفعة مصر وتوسيع رقعة امبراطوريتها ، فظل اسمه على ألسنة المصريين من بعده ما يزيد على ألف عام ٠ وقد بلغ التسعين من عمره وتوفى عام ١٢٢٥ قبل الميلاد بعد أن حكم سبعة وستين عاما ٠ وجلس على العرش بعده ابنه منبتاح ٠

منبتاح وخلفاؤه

وكان منبتاح حين تولى الحكم طاعنا فى السن ومع ذلك ظل على عرش مصر عشر سنوات استطاع خلالها أن يحافظ على الامبراطورية ويرد عنهـــا غارات أعدائها ٠ وقد حاول فى أوائل عهده أن يحتفظ بالعلاقات الطيبة التى كانت تسود بين أبيه والحيثيين ، وقد بادر حين بلغته أنباء المجاعة التى تفشت فى بلاد الحيثيين بارسال مقادير عظيمة من الغلال اليهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحفظوا له الود أو يردوا له الجميل وانما أخذوا على العكس يحرضون ضده أمراء سوريا وفلسطين حتى ثاروا على مصر ، فخرج منبتاح اليهم على رأس جيشه وانتصر عليهم وعاقبهم عقابا شديدا ٠

وقد ضاق منبتاح ذرعا بما كان يسببه بنو اسرائيل المقيمون بمصر من متاعب فطردهم ٠ وقد ورد ذكر ذلك فى لوح من الجرانيت محفوظ بالمتحف المصرى ويعرف بلوح اسرائيل ، وقد جاء به « لقد سحق فرعون بنى اسرائيل وقطع دابرهم » ٠

ولم يكد يتخلص منبتاح من المتمردين خارج مصر ومن بنى اسرائيل داخلها حتى دهم البلاد خطر آخر من جهة الغرب ، اذ اتحد الليبيون مع سكان جزر البحر الأبيض المتوسط وتقدموا لغزو مصر من البر والبحر ، فحشــد منبتاح جيوشه والتقى بجيوش أعدائه التى كانت تتكون من عشرين ألف

مقاتل ، فهزمها هزيمة منكرة وقتل وأسر منها عددا عظيما واستولى منها على غنائم ضخمة ، ثم تعقب فلولها الى آخر الحدود الغربية للدلتا ٠

حتى اذا اطمأن منبتاح الى سلامة امبراطوريته واستتباب النظام والسلام فى ربوعها تفرغ لاقامة المعابد ، واذ كان متقدما فى السن ولم يكن فى عمره بقية تكفى لقطع الأحجار ونقلها من المحاجر البعيدة راح يهدم معابد آبائه وأجداده ويبنى بأحجارها معابده ، ثم توفى عام ١٢١٥ قبل الميلاد ودفن بوادى الملوك ٠ وبعد وفاته نشب نزاع على العرش دام عدة سنوات ، ثم نجح « أمونموس » فى الوصول الى العرش ولكنه لم يدم طويلا فحل محله «سبتاح» وظل على العرش ست سنوات ، ثم أعقبه « سيتى الثانى » ، ولم يلبث أن سقط واندلعت نار الحرب الأهلية ، فانتشرت الفوضى وعم البؤس وراحت الامبراطورية المصرية تسير بسرعة نحو التفكك والانحلال ، وقد ازدادت المؤامرات واشتد التطاحن بين حكام المقاطعات الذين أخذ نفوذهم يظهر من جديد ، وانتهز النوبيون الفرصة فراحوا يعيثون فى البلاد فسادا ٠ ولكن لم يلبث أن ظهر من سلالة رمسيس الثانى رجل قوى الشكيمة عالى الهمة يدعى « ستنخت » استطاع أن يقبض على زمام الأمور فى البلاد وأن يجلس على العرش ، فأخضع العصاة وقضى على أسباب الفوضى وأعاد الى البلاد السكينة والطمأنينة ، ولكن حكمه كان قصيرا ، اذ توفى عام ١١٩٨ وجلس على العرش بعده ابنه « رمسيس الثالث »

الأسرة العشرون

رمسيس الثالث

وقد ذكر المؤرخ القديم مانيثون أن رمسيس الثالث هو مؤسس الأسرة العشرين ، وقد اعتلى العرش فى عام ١١٩٨ ق م ٠ وكان أول من اعتنى به هذا

الملك هو تكوين جيش قوى ، وقد استعان فى ذلك الى حد كبير بالجنود الأجانب المأجورين . ولم يلبث أن اتحد ضده الليبيون مع الشكاليين ، والبلستيين والدناويين والسردينيين والوشاشيين والشكاليشيين وغيرهم من شعوب جزر البحر الأبيض المتوسط وهاجموا غرب الدلتا برا وبحرا كمافعلوا من قبل فى عهد منبتاح ، فتصدى لهم رمسيس الثالث وهزم جيوشهم وحطم سفنهم وردهم على أعقابهم بعد أن قتل وأسر عددا عظيما من جنودهم . ولكن قوات تلك الشعوب التى تقطن جزر البحر الأبيض المتوسط لم تلبث أن نزلت فى آسيا الصغرى ، وقضت على دولة الحيثيين ، ثم تقدمت الى سوريا واستولت على الكثير من مدنها ، كما غزت بسفنها ساحل فينيقيا واستعدت لغزو مصر . فخرج اليها رمسيس الثالث بجيش جرار وأسطول ضخم والتحم بها على نهر الأورنت ، وهزمها شر هزيمة واستولى على أسطولها الذى كان يرابط عند الشواطىء الفينيقية ، وبذلك استعاد نفوذه فى البلاد الأسيوية وعاد يتلقى الجزية منها .

ثم حدث بعد ذلك فى السنة الحادية عشرة من حكم رمسيس الثالث أن المشواشيين القاطنين فى شمال غربى أفريقيا غزوا بلاد الليبيين وأجبروهم على التحالف معهم ثم هجموا على مصر فتصدى لهم رمسيس الثالث وأباد جيوشهم.

وبعد ذلك قاد رمسيس الثالث حملة أخرى الى آسيا حيث هزم الأموريين واستولى منهم على خمس مدن ، وشيد هناك عدة حصون ومهد وسائل النقل بين البلاد الأسيوية ومصر .

وقد بلغت المعاملات التجارية ذروتها بين مصر والبلاد الأخرى فى عهد هذا الملك . وقد كان لمعابد آمون ورع وبتاح أساطيل تجارية تمخر عباب البحرين الأبيض والأحمر حاملة معها نصيب تلك المعابد من خيرات فينيقيا وسوريا والصومال .

وقد جدد رمسيس الثالث عهد العمارات الضخمة ، فشيد في طيبة معبدا عظيما للاله آمون هو آخر المباني الشامخة التي أقامها فراعنة مصر ، وقد نقش على جدرانه أخبار حروبه ورسم أشكال جزر البحر الأبيض المتوسط الذين غزوا مصر من الشمال بملابسهم القومية وسفنهم الحربية وأسلحتهم وعتادهم ، وحفر أمام ذلك المعبد بحيرة مقدسة شاسعة ، وأنشأ حوله حديقة رائعة ، وبنى بالقرب منه قصرا شامخا • كما شيد حيا جميلا للاله آمون في مقر اقامته بالدلتا ، يزخر بالحدائق النضيرة والمماشي الكثيرة المزدانة بكل أنواع الأشجار والأزهار • وخصص لخدمة هذا الحي ثمانية آلاف عبد • وقد وهب رمسيس الثالث لخزانة آمون كل غنائمه الحربية ، فضلا عن الهبات العظيمة الأخرى قائلا « لقد ملأت خزائنك يا آمون بخيرات مصر من الذهب والفضة ومئات الألوف من الأحجار الكريمة ، وملأت مخازنك بالقمح والشعير • ووقفت عليك من الأراضي والأغنام أعدادا كرمال الشاطىء ، وفرضت الجزية لمعبدك على بلاد الجنوب والشمال والنوبة وسوريا ، وضاعفت القرابين أمامك من نبيذ وأبقار وعجول ووعول وثيران وغزلان » • وقد نجم عن ذلك أن معابد آمون أصبحت أغنى المعابد المصرية ، فكانت تملك في ذلك الحين خمسمائة ثلاثة وثمانين ألفا من الأفدنة ، أي ما ينيف على ثلثي أراضي معابد الآلهة كلها • وكانت معابد آمون تملك ستة وثمانين ألفا وخمسمائة عبد ، أي ما ينيف على ثلاثة أرباع عبيد معابد الآلهة كلها • وهكذا بالنسبة لكل الأملاك والموارد الأخرى • ومن ثم أصبح نفوذ كهنة آمون يغلب على نفوذ كهنة الآلهة الأخرى • ويحسب حسابه حتى الملوك أنفسهم ، اذ كان كل ملك لا يرضى كهنة آمون عن آرائه أو أعماله لا يستمر في الحكم طويلا • وقد اضطر رمسيس الثالث ازاء ازدياد قوة كهنة آمون وخطرهم على عرشه أن يستعين بالأسرى الأجانب في جيشه ، حتى لقد أصبح حرسه الخاص يتألف منهم •

وقد استطاع رمسيس الثالث أن يحافظ على تراث أسلافه ، فهسان

الامبراطورية من الضياع ، وحطم المحاولات التى بذلها أعداء مصر لغزوها ، وانتصر في كل موقعة خاضها وفي كل ميدان اتجه اليــه • بيد أن هــذه الانتصارات اللامعة لم تستطع أن تخفى أو تخفف عوامل الضعف والانحلال التى كانت كامنة فى جسم البلاد منذ زمان طويل ، فلما تقدم رمسيس الثالث فى السن ، وبدا عليه الضعف والوهن ، أخذت تلك العوامل تظهر وتتفاقم : وكان الكهنة هم العامل الأول فيما أصاب مصر من تفكك واضمحلال ، اذ كانوا على درجة عظيمة من الثراء ، بفضل ما أغدقه عليهم الملوك المتعاقبون من الهبات والهدايا وما وقفوه على معابدهم من ممتلكات ، بل من ممالك أحيانا بأسرها ، فبينما كانت طبقات الشعب كلها تئن من كثرة ما أنفقه الملوك على حروبهم وحفلاتهم وعلى بناء قصورهم وقبورهم ومعابدهم ، كان الكهنة وحدهم يتمتعون بالرفاهية ويتنعمون بالرخاء وينفردون بالنفوذ والسلطان ويفرضون ارادتهم حتى على الملوك • ومن ثم كان استئثارهم بالثروة دون الشعب وتدخلهم الدائم فى شئون الحكم بمثابة الأفعوان الرهيب الذى لا يفتأ يمتص دماء الأمة ويبث فيها الموت والفناء • وفضلا عن ذلك فان الجيش الذى كان فيما مضى درع مصر وحاميها من أعدائها وأعظم عامل من عوامل قوتها ورهبتها وهيبة امبراطوريتها، أصبح الآن من أسباب ضعفها وانحلالها وفساد الحال فيها ، اذ أصبح الجانب الأكبر منه يتألف من المرتزقة الليبيين والسوريين الذين كانوا مستعدين على الدوام لأن يخونوا عهد مصر وينضموا الى أى عدو من أعدائها يجزل لهم العطاء ويغمرهم بالمال • وكان حكام المقاطعات من جانبهم عاملا قويا كذلك منذ زمن بعيد فى تضعضع البلاد وتفكك قوتها وتفرق كلمتها ، اذ كانوا لا يفتأون يترقبون الفرصة للتمرد على الملك والاستئثار بالسلطة المطلقة فى مقاطعاتهم • فكان لهذه العوامل مجتمعة أثرها فيما حل بالبلاد فى أواخر عهد رمسيس الثالث من متاعب ومصاعب ، ومن دسائس ومؤامرات • ومن ذلك أن وزير رمسيس الثالث شق عصا الطاعة عليه وجمع حوله قوة كبـــيرة وتحصن فى « أتريب » التى تقع مكانها الآن مدينة بنها • ولكن رمسيس الثالث هاجمه

وهزمه وأمسك الزمام فى البلاد وأعاد النظام • الا أنه لم يلبث أن اكتشف مؤامرة أخرى أشد خطرا ، كانت تهدف الى قتله ، وكان تدبيرها فى هذه المرة راجعا الى أقرب الناس اليه وأحبهم الى قلبه وهم زوجته الملكة « تى » ، وابنه الأمير « بنتاؤور » وحاجبه « سورع » وكثيرون غيرهم من رجــال البــلاط وسيداته ، ممن ائتمنهم على نفسه ووضع فيهم ثقته • فقد اعتقدت الملكة « تى » أن زوجها رمسيس الثالث قد عدل عن توريث العرش لابنه الشرعى منها وهو « بنتاؤور » واعتزم أن يورثه لأحد أبنائه غير الشرعيين ، فدبرت مع ابنهـا مؤامرة لاغتياله واتفقت مع بعض نساء البلاط وموظفى القصر الملكى وضبـاط الجيش على قتله وتنصيب الأمير بنتاؤور مكانه • ولكن أحد المتآمرين عدل عن تنفيذ المؤامرة وكشف أمرها • بيد أن الملك الشيخ ــ رغم الصدمةالقاسية التى أصابته ــ ضرب مثلا رائعا فى الشهامة والعدل ، فلم يبطش بأولئك الذين غدروا به وخانوا عهده ، وكانوا ــ وهم صفوة أقربائه وأحبائه ــ أقسى عليه من أعدى أعدائه ، وانما شكل محكمة من أربعة عشر قاضيا لمحاكمتهم ، وأوصى أولئك القضاة بأن يحكموا بالعدل وألا يتأثروا فى ذلك بأى اعتبار غير ماتمليه عليهم ضمائرهم ، قائلا لهم « احترسوا من عقاب البرىء ، وأما المذنب فعاقبوه دون استشارتى » •

ولم يمض على هذه الأحداث زمن قصـــير حتى توفى رمسيس الثالث ــ وكان ذلك عام ١١٦٧ قبل الميلاد ــ بعد أن حكم نحو واحد وثلاثين عاما •

الرعامسة من الرابع الى الثانى عشر

وقد جاء بعد رمسيس الثالث تسعة ملوك حكموا مددا قصيرة وكان كل منهم يسمى نفسه رمسيس ، تيمنا باسم رمسيس الأكبر مجددالامبراطورية، ولكنهم كانوا ضعافا فلم يسيروا سيرته فيما حققه من أعمال عظيمـة ، وانما اعتمدوا كل الاعتماد على الكهنة فى كل الشئون • ومن ثم اشتد نفوذ أولئك

الكهنة واستفحل خطرهم ، وقد أصبح رئيس كهنة آمون يجمـــع الى جانب سلطته الدينية سلطة سياسية واسعة فأصـــبح قائد الجيش وأمين خزانة الدولة .

وقد تولى رمسيس الرابع الحكم بعد أبيه واجتهد فى مقـــاومة الظروف السيئة التى أحاطت به منذ البداية ، ولكنه فشل فى ذلك ، اذ تفاقمت عوامل الانحلال والفساد ، وسيطر الكهنة سيطرة تامة على كل مرافق البلاد ، ولم تعد هناك صعوبة تحول بين رئيس كهنة آمون وبين اغتصاب العرش والانفراد بالحكم اذا سنحت الفرصة . ولذا كانت كل أعمال رمسيس الرابع منصرفة الى ارضاء الكهنة والتقرب اليهم . وخلال مدة حكمه ست سنوات لم يقم فيها بعمل يستحق الذكر ، الا أنه كتب سيرة أبيه رمسيس الثالث بالتفصيل فى قرطاس طويل من البردى ، يسمى الآن قرطاس هاريس .

وقد توفى رمسيس الرابع عام ١١٦١ قبل الميلاد ، فخلفه ابنه رمسيس الخامس ، ثم رمسيس السادس ، ثم السابع ، ثم الثامن ، ثم التاسع ، وقد توفى كل منهم بعد فترة وجيزة من جلوسه على العرش ، حتى أنهم جميعـــا عاصروا رئيس كهنة واحد ، هو رئيس كهنة الكاب الذى تولى منصبه فى عهد رمسيس الثالث .

وفى عهد أولئك الرمامسة جميعا كانت البلاد تسير بسرعة مخيفة نحو الاضطراب والفوضى ، وكانت الامبراطورية المصرية العظيمة تتزعزع وتتصدع موشكة على الانهيار . وقد استمر ذلك فى عهد رمسيس العاشر ثم رمسيس الحادى عشر ، حتى اذا جاء رمسيس الثانى عشر وقعت الكارثة ، فتشتت شمل البلاد وانفرط عقد وحدتها ، واستقل « سمندس » أمير تانيس بالوجه البحرى كله وأعلن نفسه ملكا عليه ، وانتشر خبر ذلك خارج مصر فأخـــذ الثكاليون ــ وهم سكان جزر البحر الأبيض المتوسط ــ يغيرون مرة أخرى على

سوريا وفلسطين وطردوا الأموريين وبقايا الحيثيين والتحموا بعد ذلك ببني اسرائيل ، وقد انعدم نفوذ مصر في سوريا تماما ، أما نفوذها في فلسطين فأصبح اسميا فقط • وقد استمر رمسيس الثاني عشر يحكم ما تبقى تحت سيطرته من البلاد سبعا وعشرين سنة ، كان فيها مجرد صورة وهمية لفرعون • وفي هذه الأثناء بلغ نفوذ كهنة آمون ذروته فاستطاع رئيسهم المسمى « حريحور » أن يغتصب العرش ويؤسس الأسرة الحادية والعشرين •

الأسرة الحادية والعشرون

حريحور وخلفاؤه

وقد اعتلى حريحور العرش عام ٢٠٩٠ قبل الميلاد ، فما استتب له الأمر حتى عمل على صبغ البلاد والحكومة بالصبغة الدينية • وليته اتبع في ذلك أصول الدين الحقيقي ، ولكنه اندفع في تيار السحر والشعوذة ، وأقام تمثالا لاله آمون وزعم أنه يتحرك وينطق مبديا موافقته أو رفضه بشأن ما يعرضه عليه من الأمور ، وكان هو بطبيعة الحال الذي يتولى بنفسه أو بواسطة أتباعه تحريك التمثال أو النطق من جوفه بما يحقق أغراضه ورغباته • وهكذا أصبح لا يمكن البت في أي كبيرة أو صغيرة من شئون البلاد الا بعد عرضها على آمون وأخذ رأيه المزعوم فيها ، ثم يتم تنفيذ مشورته بلا اعتبار لأي عدل أو قانون •

ولم يطل عمر حريحور فلم يلبث أن توفي وجلس على العرش بعده ابنه « باي هنخ » ، ولكنه توفي بعد فترة وجيزة كذلك فجاء بعده « باي نوزم الأول » ، وفي عهده توفي « نسوبانبدد » ملك الوجه البحري وخلفه « بسنيب خنو الأول » فاقترن « باي نوزم الأول » من ابنة « بسيب خنو الأول » ،

حتى اذا توفى هذا عام ١٠٦٧ قبل الميلاد اعتلى « باى نوزم الأول » عرش الوجهين القبلي والبحرى معا ، واتخذ مدينة « تانيس » عاصمة له . وبذلك حقق توحيد البلاد مرة أخرى تحت سلطانه ، ثم عين ابنه رئيسا لكهنة آمون . وقد استمر « باى نوزم الأول » على العرش نحو اربعين عاما ثم توفى فخلفه ابنه « من خبر رع » . بيد أنه لم يلبث ان ظهر شخص يدعى « أمنم اوبت » فاغتصب العرش منه ، وظل يحكم البلاد نحو تسعة واربعين عاما حتى توفى عام ٩٧٦ قبل الميلاد فخلفه « سيامون » وظل يحكم ستة عشر عاما حتى توفى عام ٩٥٨ قبل الميلاد فخلفه « بسيب خنو الثانى » وظل يحكم اثنى عشر عاما ثم توفى عام ٩٤٥ قبـل الميـلاد وكان هو آخر ملوك الأسرة الحـادية والعشرين .

ولم يكن ملوك هذه الأسرة في الجملة ملوكا أقـويـاء . وقد أخـذت الامبراطورية في عهدهم تنكمش وتتضاءل ولا سيما في آسيا . فكانت سوريا قد تمردت على الحكم المصرى ، وظلت سيادة مصر على فلسطين اسمية . وقد كانت أسباط بنى اسرائيل في ذلك الوقت قد تجمعت هناك وأقامت لنفسها دولة موحدة بقيادة الملك شاول والملك داوود . أما الليبيون فكانوا قد تسللوا الى الوجه البحرى تحت ستار الهجرة السلمية ووطدوا هناك أقدامهم . وقد ازداد عدد المأجورين منهم في الجيش المصرى ، وأصبحت قيـادة الكتائب المرابطة في الوجه البحرى معقودة لضباط من المشواشيين الليبيين . وقد حدث في أواخر عهد الأسرة الحادية والعشرين أن أحد أولئك المشواشيين القاطنين في مدينة اهناس ، وكان يدعى « موسن بن بيواوا » ، تولى قيادة حرس تلك المدينة ، كما تولى حراسة معبدها ، فأصبحت هاتان الوظيفتان وراثيتين في عائلته ، ومن ثم ورثهما عنه ابنه المسمى « شيشونق » ، وقد استفحل أمره وتفاقم خطره حتى أصبح لقبه « رئيس المشواشيين العظيم » وقد تمكن من بسط نفوذ أسرته على المقاطعات المحيطة به حتى امتد سلطانه

من الوجه البحرى الى أسيـــوط • ثم فى عام ٩٤٥ قبل الميـــلاد تمكن « شيشونق » من الاستيلاء على عرش مصر • وقد اعتبره مانيتون مؤسس الأسرة الثانية والعشرين •

وهكذا سقطت الأسرة الحادية والعشرون بعد أن استمرت تحكم البلاد من عام ١٠٩٠ الى عام ٩٤٥ قبل الميلاد ، أى نحو ١٤٥ عاما •

الأسرة الثانية والعشرون

شيشونق الأول وخلفاؤه

وقد جعل « شيشونق » حق اعتلاء العرش وراثيا فى أسرته ، واتخذ مدينة بوبسطة فى شرق الدلتا عاصمة له • وكان حاكما قويا شجاعا ، نهض بمصر وعزم على استرجاع مجدها القديم ، فوطد سيادة مصر فى فلسطين وجعلها فعلية بعد أن كانت اسمية • وكان يحكم بعض ولاياتها فى ذلك الحين سليمان الحكيم الذى يبدو أنه تزوج من ابنة شيشونق ، فشملـــه هـذا بحمايته ، وعمل على تمكينه من بسط نفوذه على الولايات المحيطـة به وضم اليه مدينة جازر التى كانت لها أهميتها ، فلما شق أميرها الكنعانى عصـا الطاعة على شيشونق استولى هذا عليها عنوة وأحرقها ، ثم أهـــداها الى سليمان الذى أعاد بناءها من جديد •

ولما انقسمت مملكة اليهود بعد وفاة سليمان الى مملكتين احداهما مملكة اسرائيل ويملك عليها يربعام ، والأخرى مملكة يهوذا ويملك عليهـا رحبعام بن سليمان ، تطلع شيشونق الى زيادة نفوذه فى فلسطين • حتى اذا التجأ اليه يربعام طالبا حمايته ، توجه شيشونق الى فلسطين وغزاها عام ٩٢٦ قبل الميلاد ، فوصل الى شاطىء بحر الجليل شمالا ، وماهنايم التى بوادى

الأردن شرقا وأطلق قواته الليبية فراحت تنهب مدن سـهل يزرل ، بادئة برهوب ومجدو وتناخ وشونم حتى بيت شيئى شرقى وادى الأردن ، ثم اتجهت جنوبا الى يرزا وبيت حورون وأيالونا وجيبون وسوكو وبيت أنوب وشرجان وأرادو . وقد جاء فى التوراة أنه « صعد شيشق ملك مصر الى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان » (الملوك الأول ١٤ : ٢٥) . ويقول شيشونق أنه استولى كذلك على الجهة المعروفة بحقل ابراهيم . وهذه هى أقدم عبارة ورد بها اسم ابراهيم جد اليهود فى الآثار المصرية .

وبعد أن عاد شيشونق من غزوته سجل أخبارها على جـدران معبد الكرنك ذاكرا فيها غنائمه التى جاء بها من فلسطـين والجزية التى فرضها عليها . وقد تشبه بالفراعنة الأقدمين فعين ابنه « يوبيت » رئيسـا لكهنة آمون ، وشيد العمارات الضخمة ، كما شيد صرحا شامخا بالكرنك .

وقد توفى شيشونق الأول عام ٩٢٠ قبل الميلاد ، فجلس على العرش بعده ابنه « أوسركن الأول » زوج ابنة الملك « بسيبب خنو » آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين . وقد تبرع « أوسركن الأول » لمعابد مصر بمقادير ضخمة من الذهب والفضة وبلغت نحو خمسمائة وستين ألف رطل ، وقد عين ابنه رئيسا لكهنة آمون ثم توفى عام ٨٩٥ قبل الميلاد ، فخلفه ابنـه « تاكلوت الأول » . ولكنه توفى بعد قليل فخلفه ابنه « أوسركن الثانى » ، وقد أشرك معه فى الحكم ابنه « شيشمونق الثانى » ، ولكنه توفى فأشرك معه ابنا آخر هو « تاكلوت الثانى » ، وقد خلف أبيه بعد موته عام ٨٦٠ قبل الميلاد . ثم جاء بعده « شيشونق الثالث » ثم « بيمو » ثم « شيشونق الرابع » . وبعد وفاة هذا الأخير ظهر بالدلتا أمير يدعى « بديبست » وبسط نفوذه فى كـل أنحاء البلاد ثم انتزع العرش من ملوك الأسرة الثانية والعشرين ، وقد اعتبره مانيثون مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين .

وقد تطبع ملوك الأسرة الحادية والعشرين الليبيين بالطباع المصرية ، وعبدوا آلهة المصريين ، واحتفظوا بألقاب الفراعنة وحافظوا على تقاليدهم . وفى عهدهم اضمحل النفوذ المصرى فى آسيا بالتدريج حتى انعدم تقريبا . وقد استمر حكم هذه الأسرة من عام ٩٤٥ الى عام ٧٤٥ قبل الميلاد أى نحو مائتى عام .

الأسرة الثالثة والعشرون

بيديبست وخلفاؤه

وقد جلس بيديبست على عرش مصر عام ٧٤٥ قبل الميلاد واتخذ طيبة عاصمة له ، ولكنه فى السنة الرابعة والعشرين من حكمه اضطر أن يقتسم حكم البلاد مع أحد حكام شرقى الدلتا يسمى « يوبت » ، حتى توفى « بيديبست » عام ٧٢١ قبل الميلاد ، فجلس على العرش بعده « أوسركن الثالث » وفى عهده انقسمت البلاد من جديد الى مقاطعات مستقلة ، وعادت الى ما كانت عليه قبل عصر الوحدة ، فانحصرت سلطة « أوسركن الثالث » فى مقاطعته بتل بسطة ، ولم يلبث « تفنخت » أمير صا الحجر أن أعلن نفسه ملكا على الوجه البحرى كله وجزء من الوجه القبلى .

وفى هذا الوقت كانت قد ظهرت فى بلاد النوبة مملكة مستقلة عاصمتها « نبته » الواقعة جنوبى الشلال الرابع ، بعد أن استمرت مصر تحكم النوبة قرابة ألفى عام حتى انصبغت بالصبغة المصرية تماما ، وتكلم أهلها اللغة المصرية وعبدوا المعبودات المصرية . وقد ظل اقليم الشلالات خاضعا للنفوذ المصرى حتى عام ٨٥٠ قبل الميلاد ، أى حتى عهد ملوك الأسرة الثانية والعشرين ، وكانت مناجم الذهب المصرية موقوفة على معبد آمون ، ولذلك

سميت النوبة « أرض آمون الذهبية » ، كما أصبح رئيس كهنة آمون حاكما على النوبة . ولكن النوبيين انتهزوا فرصة ضعف الدولة المصرية في القرن الثامن قبل الميلاد ، فاستقلوا بحكم بلادهم ، وكونوا لهم مملكة جلس على عرشها ملوك نوبيون كان من أوائلهم « كاشتا » ، ثم جاء بعده ابنه « بيعنخي » الذي اعتلى عرش تلك المملكة عام ٧٤١ قبل الميلاد ، وراح يغير على الأراضي المصرية ويتوغل فيها حتى استولى على أغلب أراضي الصعيد . فلما استفحل أمر « تفنخت » أمير صا الحجر وراح يبسط سلطانه على مقاطعات الوجه القبلي واحدة بعد أخرى ، أرسل « بيعنخي » جيشا تصدى له وهزمه وزحف حتى بلغ مدينة أهناس ، وهناك أعلن نفسه ملكا على مصر . أما « تفنخت » فقد قاوم الغزاة مقاومة عنيفة ولكنه تحت ضغطهم تظاهر بالخضوع ، حتى اذا عاد « بيعنخي » الى الجنوب تمرد على سلطته وانشأ في الوجه البحري مملكة مستقلة واتخذ لنفسه الألقاب الفرعونية واستمر حاكما للدلتا ثماني سنوات . ثم توفي فخلفه ابنه « بوكوريس » مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين ، بينما ظل حكم « بيعنخي » مبسوطا في الصعيد .

وقد استمر حكم الأسرة الثالثة والعشرين من عام ٧٤٥ الى عام ٧١٨ قبل الميلاد ، أي نحو سبعة وعشرين عاما .

الأسرة الرابعة والعشرون

بوكوريس

وقد استطاع بوكوريس أن يعيد الى البلاد شيئا من النظام . غير أنه لم يكد يستقر على العرش حتى عاد النوبيون الى الزحف شمالا ، وكان « بيعنخي » قد توفي وخلفه في الحكم أخوه « شاباكا » بعد أن اقترن بابنته »

وقد ذكر مانيثون أن « شاباكا » هاجم بوكوريس وهزمه ثم أحرقه حيا وبذلك أطاح بأسرته وأسس الأسرة الخامسة والعشرين .

وهكذا سقطت الأسرة الرابعة والعشرون سريعا ، وكانت مصر فى عهدها قد بلغت أقصى درجات الانحلال والاضمحلال وقد انحطت زراعتها وفسدت صناعتها وكسدت تجارتها ، وأصبحت كل مواردها نهبا فى يد حكام المقاطعات وانعدم الأمن وعم الفساد وانتشرت الفوضى ، وكثرت المنازعات والحروب الداخلية . وقد جاء فى التوراة عن حال مصر فى ذلك الوقت : « هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم الى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها ، وأهيج مصريين على مصريين فيحاربون كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه مدينة مدينة ومملكة مملكة . وتهراق روح مصر داخلها وأفني مشورتها فيسألون الأوثان والعازفين وأصحاب التوابع والعرافين وأغلق على المصريين فى يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب الجنود . وتنشف المياه من البحر ويجف النهر .. وتجف سواقى مصر ويتلف القصب والأسل والرياض على النيل .. ويخزى الذين يعملون الكتان الممشط والذين يحيكون الأنسجة البيضاء . وتكون عمدها مسحوقة وكل العاملين بالأجرة مكتئبى النفس . ان رؤساء صوعن (تانيس) أغبياء . حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية .. رؤساء نوف (النوبة) انخدعوا . وأضل مصر وجوه أسباطها . مزج الرب فى وسطها روح غى فأضلوا مصر فى كل عملها كترنح السكران فى قيئه . فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب » (الأصحاح التاسع عشر من أشعياء) — وقد انهارت الامبراطورية المصرية : ففى الجنوب تمرد النوبيون كما رأينا ولم يكفهم أنهم خرجوا على طاعة مصر ، بل هاجموها واستولوا على الجانب الأكبر من أراضيها . وفى آسيا لم يقف الأمر عند تمرد سوريا وفلسطين وانفصالهما عن مصر ، بل استجد خطر أشد من ذلك وأعظم وبالا ، اذ استفحل أمر

الأشوريين الذين كانوا لا يفتأون يهددون مصر . وقد سبق أن أرسل « تسوباندد » ملك مصر الهدايا عام ١١٠٠ قبل الميلاد الى ملكهم « تجلات فلاسر الأول » حين علم أنه اقترب من الحدود المصرية استرضاء له ودفعا لخطره . ثم بعد ذلك بمائتين وخمسين عاما تحالف ملك مصر مع أمراء ولايات آسيا الغربية لسحق قوات ملك الأشوريين « شالمنصر الثانى » ، وكان ذلك حوالى عام ٨٥٤ قبل الميلاد . حتى اذا ارتقى « تجلات فلاسر الثالث » عرش أشور شن الغارة على غربى آسيا واستولى على سوريا وفلسطين ، وفى نحو عام ٧٣٤ قبل الميلاد وصلت جنوده الى حدود مصر ، ولكنه مات فى هذه الأثناء ، فارتقى عرش أشور فى مكانه شالمنصر الرابع ، وفى عهده ثار بنو اسرائيل على حكم الأشوريين بمساعدة الملك « سيوا » الذى ورد ذكره فى التوراة باعتباره ملك مصر ، ويبدو أنه كان أحد ملوك الوجه البحرى فى ذلك الحين . وقد جاء فى التوراة بهذا الصدد أنه « فى السنة الثانية عشرة لآحاز ملك يهوذا ملك هوشع بن أيلة فى السامرة على اسرائيل تسع سنين . وصعد عليه شلمناصر ملك أشور ، فصار له هوشع عبدا ودفع له جزية ، ووجد ملك أشور فى هوشع خيانة لأنه أرسل رسلا الى سيوا ملك مصر ولم يؤد جزية الى ملك أشور حسب كل سنة ، فقبض عليه ملك أشور وأوثقه فى السجن . وصعد ملك أشور على كل الأرض وصعد الى السامرة وحاصرها ثلاث سنين . وفى السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك أشور السامرة وسبى اسرائيل الى أشور » (الاصحاح السابع عشر من الملوك الثانى) . ثم جاء الملك « سرجون الثانى » بعد وفاة « شلمنصر الرابع » وأغار على الأسباط الباقية فى مملكة اسرائيل وطردها من بلادها ونفاها الى ما وراء الفرات . فلما رأى ملوك مصر ذلك خشوا على أنفسهم من دولة الأشوريين القوية وخافوا أن يهاجموها وهم أعلم بضعفهم ، فاكتفوا بتحريض سوريا وفلسطين ضدها ، فما شعر « سرجون الثانى » بذلك حتى انقض بجيوشه على الولايات الثائرة فأخضعها وواصل تقدمه حتى بلغ الحدود المصرية . وقد جاء فى

الخصوص الأشورية أن ملك مصر — الذى هو على الأرجح بوكوريس — أرسل هدية عظيمة الى « سرجون الثانى » يسترضيه بها ، ويرجوه ألا يتعرض لمصر • وهكذا انعكست الآية بعد أن كان ملوك أشور هم الذين يهرعون الى فرعون مصر بهداياهم ليسترضوه ويتقربوا اليه • وفى هذه الظروف السيئة التى كانت تحيط بمصر سقطت الأسرة الرابعة والعشرون •

الأسرة الخامسة والعشرون

شاباكا

ومؤسس الأسرة الخامسة والعشرين هو الملك « شاباكا » وقد اغتصب عرش مصر من « بوكوريس » آخر ملوك الأسرة الرابعة والعشرين • وما أن تولى السلطة حتى أدرك الخطر العظيم الذى يهدد مصر من جانب الأشوريين فراح يحرض ولايات سوريا وفلسطين على الثورة ضد مملكة أشور ، واعدا اياها بمساندتها ومساعدتها اذا اعتدى الأشوريون عليها ، فانصاع له ولاة يهوذا ومهأب وايدوم وأعلنوا التمرد على أشور ، مرتكنين على قوة مصر التى كانت من قبل تبعث الفزع فى قلوب الأمم ، غير عالمين بما وصلت اليه مصر فى ذلك الوقت من تدهور واضمحلال ، وقد انخدعوا جميعا فى وعود « شاباكا » ، الا أشعياء النبى فقد أدرك أن الاعتماد على ملوك مصر لا طائل تحته وقد تنبأ بأن آشور ستستولى فى القريب على مصر ذاتها • فمـا علم « سرجون الثانى » ملك الأشوريين بالمؤامرة التى ينسج ملك مصر خيوطها حتى نهض فى الحال وأحبطها ، ومن ثم خضعت الولايات المتمردة وعادت تظهر ولاءها لملك آشور • ثم توفى « سرجون الثانى » عام ٧٠٥ قبل الميلاد فخلفه فى حكم الأشوريين ابنه « سنا شريب » ، وفى بداية عهده ثار أحد أمراء بابل ، وهو « مردوق باليدن » مطالبا بالعرش ، فلما فشل فى الوصول الى غايته راح

يحرض ولايات آسيا الغربية على الثورة ضد آشور ، فاستجاب له « لولى » ملك صور وحزقيال ملك يهوذا ، كما استجاب له أمراء موآب وآدوم وعمون ورؤساء القبائل المتاخمين له ، ثم انضم شاباكا ملك مصر الى هذا التحالف الذى ضم جميع مستعمرات آشور الغربية فى آسيا ، بيد أنه ما بدأ هذا التحالف يستعد للهجوم على آشور حتى انقض سناشريب فجأة على فينيقيا فاستولى على حصونها وقلاعها ما عدا صور ، ثم زحف جنوبا الى فلسطين فعاقب عسقلون على عصيانها ، ثم اتجه الى ألتاكو ، حيث التقى بجيوش الحلفاء يتقدمها الجيش المصرى بقيادة الأمير طهراقة ابن بيعنخى موفدا من قبل شاباكا ، وهناك التحم الجانبان ، وبعد قتال عنيف انتصر « سنا شريب » ملك آشور وألحق بالمصريين وحلفائهم هزيمة منكرة ، ثم حاصر أورشليم ووجه ضربة قاسية الى مملكة يهوذا ، وبذلك شتت شمل أعدائه • الا أنه بينما كان « سناشريب » يحاصر أورشليم انتشر بين قواته وباء ذريع حصد منها عددا عظيما ، كما وردت اليه أنباء سيئة من بابل تفيد وقوع اضطرابات خطيرة فيها ، فأسرع الى « نينوى » عاصمة مملكته ، ومن ثم نجت أورشليم هذه المرة من بطشه ، كما نجت مصر للمرة الثالثة من هجوم الآشوريين عليها، ولكنها فقدت ثقة الولايات الأسيوية فيها وانكشف أمام الجميع ضعفها حتى لقد كتب رجال « سناشريب » الى والى أورشليم يقولون له « لقد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة ، على مصر ، واذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها • هذا هو فرعون مصر ، وهذا شأن المتكلين عليه » •

وقد توفى شاباكا عام ٧٠٠ قبل الميلاد بعد أن حكم اثنى عشر عاما ،وخلفه على عرش مصر ابنه « شاباتاكا » •

شاباتاكا

وكان « شاباتاكا » ضعيفا فلم يستطع أن يسيطر على حكام المقاطعات أو

يستعد لقتال الأشوريين . بيد أنه كان حسن الحظ اذ كان « سنحاريب » ملك آشور مشغولا في اخضاع مستعمراته الشرقية فلم يفرغ لمهاجمة مصر ، ومن ثم تجنبه شاباتاكا ولم تضطره الظروف الى محاربته ، الا أنه جاءته الضربة القاضية من ناحية أخرى ، اذ أن الأمير طهراقة الذي كان قد قاد جيوش أبيه « شاباكا » ضد الأشوريين لم يلبث أن اعتلى عرش أثيوبيا ، ثم أقبل الى مصر في جيش جرار وقتل « شـــاباتاكا » واغتصب العرش الفرعوني .

طهراقة

وقد اعتلى طهراقة عرش مصر عام ٦٨٨ قبل الميلاد . وكان قويا عظيم الهمة ، فراح يستعد لصد هجوم الأشوريين . وكان « سنا شريب » ملك آشور قد تآمر عليه أولاده وقتلوه عام ٦٨١ قبل الميلاد وجلس أحدهم على عرشه وهو « آشور أخي الدين » فما استتب له الأمر حتى بدأ يستعد لغزو مصر والاستيلاء عليها حتى يستريح من مؤامرات ملوكها ضد الأشوريين في سوريا وفلسطين ، ثم زحف الى مصر فبلغ حدودها عام ٦٧٤ قبل الميلاد ، وهناك التقى بقوات طهراقة ، ودار بين الأشوريين والمصريين قتال عنيف ، دافع المصريون أثناءه عن بلادهم دفاعا رائعا حتى هزموا الغزاة وردوهم على أعقابهم ، بيد أن « آشور أخي الدين » عاد يستعد مرة أخرى للهجوم على مصر ، وفي عام ٦٧٠ قبل الميلاد ، تقدم بجيوشه ، واذ كان بعل ملك صور قد انضم الى مصر ضده ، حاصر مدينته ، وفي أثناء هذا الحصار تقدم بعض البدو الى « آشور أخي الدين » ودلوه على طريق في الصحراء يستطيـــع بواسطته مفاجأة المصريين فتقدم في هذا الطريق وانقض بغتة على مصر وتوغل فيها حتى « منف » فسقط الوجه البحري كله تحت رحمته وقد عامل أهاليه دون رحمة أو شفقة ، فلجأوا الى طهراقة الذي كان قد تقهقر الى الوجه القبلي

فاستعد للالتحام بالأشوريين • وفى هذه الأثناء توفى « آشور أخى الدين » عام ٦٦٨ قبل الميلاد فخلفه فى حكم الأشوريين ابنه « آشور بانيبال » وتقدم لملاقاة طهراقة وهزمه وظل يطارده ، فلجأ طهراقة الى طيبة واعتصم بها وظل مسيطرا على الوجه القبلى ، تاركا الوجه البحرى فى قبضة الأشوريين وقد ظل يحكم طيبة خمسة وعشرين عاما ، ثم فى أواخر حكمه أشرك معه أخاه « تانوت آمون » ثم عاد الى أثيوبيا وتوفى هناك عام ٦٦٣ قبل الميلاد ، فذهب « تانوت آمون » واعتلى عرش أثيوبيا ، ثم عاد بجيشه الى مصر وحـــاول استرداد الوجه البحرى من الأشوريين ، وقد استطـــاع فعـــلا أن يهزمهم واستولى على منف واتخذها عاصمة لمملكته • ولكن جيش آشور لم يلبث أن زحف على مصر عام ٦٦١ قبل الميلاد وطرد « تانوت آمون » من الوجه البحرى وتعقبه حتى طيبة ثم انقض على هذه المدينة العظيمة فخربها • وقد انتشر نبأ خراب طيبة فى كل الأقطار وظل عالقا بالأذهان ، حتى قال ناحوم النبى مخاطبا « نينوى » بعد ذلك بنحو خمسين عاما كما جاء فى التوراة « هل أنت أفضل من نو آمون (وهى طيبة) الجالسة بين الأنهار حولها المياه التى هى حصن البحر ومن البحر سورها ؟ •• فوط ولوبيم كانت معونتك ، وهى أيضا مضت الى المنفى بالسبى وأطفالها حطمت فى رأس جميع الأزقة وعلى أشرافها ألقوا القرعة وجميع عظمائها تقيدوا بالقيود » (ناحوم ٣ : ٨ ـ ١٠) وبعد ذلك عاد « تانوت آمون » الى أثيوبيا فانتهى حكم الأثيـــوبيين بمصر وسقطت الأسرة الخامسة والعشرون بعد أن استمرت فى الحكم من عـــام ٧١٢ الى عام ٦٦٣ قبل الميلاد أى نحو خمسين عاما •

* * *

الاسرة السادسة والعشرون

بسامتيك الأول

حين استولى الأشوريون على مصر واستتب لهم الأمر فيها ، رأوا من حسن السياسة أن يقيموا عليها أميرا من أهلها ، كى يضمنوا ولاءه ويستعينوا به على غيره من الأمراء • ولذلك اختاروا الأمير نيخاو حاكم سايس ، فلما توفى نيخاو خلفه ابنه بسامتيك الأول ، وكان رجلا قوى الشكيمة عظيم الدهاء ، فعقد العزم على الخلاص من سلطة الأشوريين والاستقلال بمصر • وقد ساعدته الأقدار فى ذلك ، فلم تلبث الحرب أن نشبت عام ٦٥٢ قبل الميلاد بين آشور بانيبال ملك آشور وأخيه ملك بابل ، واستمر القتال بينهما اثنى عشر عاما • فانتهز بسامتيك هذه الفرصة وجاهر بتمرده على الأشوريين ، حتى اذا انتهت الحرب حوالى عام ٦٤٠ قبل الميلاد كان بسامتيك قد وطد مركزه فى مصر فلم يجرؤ آشور بانيبال على التصدى له ، وبذلك استردت مصر سيادتها من جديد •

وقد عمل بسامتيك فى بداية حكمه على اخضاع حكام المقاطعات الذين كان كل منهم مستقلا بمقاطعته ، فحقق بذلك وحدة البلاد فى ظل حكومة قوية بعد أن ظلت فريسة التفكك والضعف مدة تقرب من أربعمائة عام • وأصبح بسامتيك بذلك من أعظم وأكفأ فراعنة مصر ، وأصبحت منزلته تضارع منزلة أمنمحعت الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وأحمس الأول قاهر الهكسوس •

وقد جمع بسامتيك السلطة كلها فى يده ، ومنع حكام المقاطعات وكبار الموظفين من توريث مناصبهم لأبنائهم ، وألف جيشا من اليونانيين والكاريين

والسوريين والليبيين وغيرهم من الأجانب ، وعكف على تدعيم الحالة الاقتصاديه في البلاد ، ومن ثم عادت مصر الى عهودها القديمة الزاهرة .



« بسامتيك الأول في حماية الالهة حاتحور »
« وهي على هيئة بقرة »

وقد اتخذ بسامتيك مدينة « سايس » عاصمة له ، وكانت في مكان صا الحجر الحالية الواقعة على فرع رشيد بالدلتا ، وكانت هي المدينة التي نشأت فيها أسرته . أما طيبة التي ظلت عصورا طويلة هي المركز السياسي والديني لمصر وامبراطوريتها فقد أخذت منذ ذلك الحين تفقد نفوذها وأهميتها .

وقد برزت في هذا العهد عبادة أوزوريس دون غيره من الآلهة الأقدمين، كما برزت عبادة « آبيس » وكان المصريون يرمزون له بعجل فاحم السواد يشوب جبهته بياض مثلث الشكل وعلى جانبه الأيمن بياض آخر على شكل هلال . ولا تزال أسرار هذه العبادة غامضة .

وفى هذا العهد ارتقت الفنون وأصبحت أكثر دقة فى محاكاتها للطبيعة . أما صناعة البرونز فقد بلغت غاية الاتقان ، ويرجع أكثر الآثار البرونزية المحفوظة فى المتاحف الى هذا العهد . كما فاقت الصناعات الأخرى أمثالها فى أى عهد سابق من حيث الدقة ، حتى لقد أصبحت عديمة النظير فى العالم كله .

وكان من أهم الأمور التى اهتم بها بسامتيك زيادة ثروة البلاد عن طريق تشجيع التجارة ، وقد عمل على ارجاع العلاقات التجارية القديمة بين مصر والبلاد الأخرى ولا سيما فينيقيا واليونان ، فتقاطرت السفن الفينيقية على مصبات النيل ، وتزايد عدد التجار اليونان الذين يفدون الى مصر ، حتى أصبح لهم حى خاص فى منف ، وأصبح أبناؤهم يتطوعون بأعداد كبيرة فى الجيش المصرى .

وقد تطلع بسامتيك الى استعادة مجد الامبراطورية القديمة وانتزاع الأقاليم الأسيوية من الأشوريين فتقدم بجيشه عام ٦٤٠ قبل الميلاد الى فلسطين وحاصر أشدود عدة سنوات . بيد أنه اضطر الى العودة لأن الشيثيين زحفوا من الشمال الى آشور ، ثم اقتربوا من حدود مصر ، فادركهم والتحم بهم وردهم عن بلادهم .

وقد استمر بسامتيك فى الحكم أربعة وخمسين عاما ، عمل خلالها على انقاذ بلاده مما كانت قد تردت فيه من انحلال واضمحلال وبؤس ، وأخذ بيدها وأعاد اليها قوتها وعاد بها الى حالة من الرفاهية والرخاء والازدهار لم

تر لها مثيلا منذ نحو خمسمائة عام . ثم توفى عام ٦٠٩ قبل الميلاد ، فارتقى العرش بعده ابنه نيخاو .

نيخـــــاو

وقد اعتزم نيخاو أن يحقق آمال أبيه في بعث الامبراطورية المصرية ، فأعد جيشا عظيما وشيد أسطولا بحريا ضخما فى البحر الأبيض وأسطولا آخر فى البحر الأحمر ، واتجه الى فلسطين فاستولى على غزة وعسقلون ، ثم زحف شمالا الى مملكة يهوذا فقتل ملكها هوشع وهزم جيشه فى سهل مجدو ، ثم واصل زحفه الى نهر الفرات فلم يجد أى مقاومة من الأشوريين ، وكانوا فى ذلك الحين قد انتابهم الضعف ، وبذلك استعاد كل ممتلكات مصر السابقة فى غزوة واحدة ، ثم ارتد الى مملكة يهوذا فوجد عليها ملكـــا جديدا هو يهوحاز ابن يوشع فقبض عليه وأرسله مكبلا بالحديد الى مصر ووضع مكانه الياقيم بن يوشع وسماه « يهوياقيم » ثم فرض عليه الجزية وقدرها سبعة وخمسون رطلا من الذهب وخمسة آلاف وسبعمائة رطل من الفضة .

ولكن امبراطورية نيخاو الأسيوية كانت قصيرة الأجل ، ففى أقل من عامين تمكن « سياكسارس » ملك ميديا ، و « نابوبلاصر » ملك بابل من القضاء على آشور ، واقتسما أملاكها ، فكانت المستعمرات الشمالية والشمالية الشرقية من نصيب ملك ميديا ، وكانت المستعمرات الجنوبية والجنوبيـــة الغربية من نصيب ملك بابل . وهكذا وقعت سوريا فى ممتلكات « نابوبلاصر » ، فما بلغ ذلك مسامع نيخاو حتى أسرع بجيوشه لحماية سوريا فالتقى على نهر الفرات بجيوش « نابوبلاصر » يقودها ابنه « نبوخذ رضار » والتحم الفريقان فانهزم نيخاو وتقهقر مسرعا نحو الدلتا عن طريق مملكة يهـــوذا ، فما رآه اليهود حتى أمطروه بعبارات السخرية والتشفى ، فقال نبيهم أرميا « عـــن جيش فرعون نخو ملك مصر الذى كان على نهر الفرات فى كركميش الذى ضربه

نبوخذ رصار ملك بابل فى السنة الرابعة ليهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا ٠٠ لماذا أراهم مرتعبين ومدبرين الى الوراء وقد تحطمت أبطالهم وفروا هاربين ولم يلتفتوا ٠٠ فى الشمال بجانب نهر الفرات عثروا وسقطوا ٠٠ فهذا اليـــوم للسيد رب الجنود يوم نقمة للانتقام من مبغضيه ٠٠ يا عذراء بنت مصر ٠٠ قد سمعت الأمم بخزيك ، وقد ملأ الأرض عويلك ٠٠ الكلمة التى تكلم بها الرب الى أرميا النبى فى مجىء نبوخذ رصار ملك بابل ليضرب أرض مصر ٠ أخبروا فى مصر وأسمعوا فى مجدل وأسمعوا فى نوف ٠٠ الهلاك من الشمال جاء ٠٠ قد أخزيت بنت مصر ودفعت ليد شعب الشـــمال ٠ قال رب الجنـــود اله اسرائيل ٠ هاأنذا أعاقب آمون نو وفرعون ومصر وآلهتها وملوكها ، فرعون والمتوكلين عليـــه ، وأدفعهم ليـــد طالبى نفوسهم وليد نبوخذ رصار ملك بابل » (الأصحاح السادس والأربعون من أرميا) ٠ وقد راح نبوخذ رصار يطارد جيش نيخاو وقد اعتزم أن يتبعه حتى حدود مصر ويغزوهـا ويستولى عليها ٠ ولكنه لم يلبث أن بلغه نبأ وفاة أبيه « نابو بلاصر » فاضطر الى العودة سريعا ليرتقى العرش مكـــانه ، ولذلك عقد اتفـــاقا مع نيخاو يتضمن ضم فلسطين وسوريا نهائيا الى بابل ، وبذلك انهارت آمال نيخاو فى الاحتفاظ بامبراطوريته الأسيوية ، وجاء فى التوراة « لم يعد أيضا ملك مصر يخرج من أرضه لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر » (٢ ملوك ٢٤ : ٧) ٠ ولكن « نبوخذ رصار » الذى فرح اليهود بانتصاره على مصر لم يلبث أن انقض على مملكتهم عام ٥٩٩ قبل الميلاد وأخذ عشرة آلاف أسير من أشرافها وأعيانها ، وحمل معه كنوز هيكل سليمان والقصر الملكى ، ثم عاد اليها عام ٥٨٨ قبل الميلاد فاستولى على أورشليم ونهبها وهدم أسوارها وأحرق الهيكل وساق الشعب الى الأسر فى بابل ٠

أما نيخاو فانصرف الى الاصلاحات الداخلية فى بلاده ، وعمـــل على توسيع نطاق التجارة وأرسل بعثة لارتياد سواحل أفريقيا استغرقت ثـلاث

سنوات وشرع فى اعادة حفر القناة التى كانت تصل فرع النيـــل الشرقى بالبحر الأحمر • ولكنه بعد أن قطع فى ذلك شوطا كبيرا نصحه المهندسون ـ كما يقول ديودور الصقلي ـ بالتوقف عن الحفر ، خوفا على مصر من الغرق، لاعتقادهم ان مياه البحر الأحمر أعلى من سطح الدلتا •

وقد توفى نيخاو عام ٥٩٣ قبل الميـــلاد فارتقى العـرش بعـــده ابنه « بسامتيك الثانى »

بسامتيك الثانى

واذ كان بسامتيك الثانى يائسا من استعادة ممتلكات مصر فى آسيا حاول استرجاع النوبة التى كانت قد انفصلت عن مصر منذ قيـــــام مملكة أثيوبيا ، فتقدم اليها بجيشه وتوغل فيها حتى الشلال الثانى وأعاد الى مصر سيادتها فى ذلك الاقليم •

أما فى الداخل فقد واصل « بسامتيك الثانى » أعمال أبيه الاصلاحية ، وعين ابنته « انخنس نفر » رئيسة دينية فى طيبة بدلا من عمته «نيتوكريس»• التى كانت قد تقدمت فى السن •

وتوفى بسامتيك الثانى عام ٥٨٨ قبل الميلاد فخلفه ابنه « أبريس » •

أبريس

وكان اسم أبريس الحقيقى باللغة المصرية هو « حعبرع » وكان اليهود يسمونه « هوفرع » • وقد تطلع هذا الملك الى تحقيق آمال أبيه وجـــده فى استعادة الممتلكات المصرية فى آسيا ، فخرج بأســـطوله فى البحر الأبيض المتوسط وقضى على أسطول صور وقبرص وانقض على صيدا فاستولى عليها

ثم استولى على سائر مدن فينيقيا • وفى هذه الأثناء كان « نبوخذ رصار » ملك أشور قد عين « صدقيا » عم « يهوياكين » ملكا على يهوذا بعد أن هاجمها وأسر كل أشرافها واستولى على كل ذخائرها وكنوزها • فراح أبريس يحرض صدقيا على الثورة ضد « نبوخذ رصار » كما حرضه عـلى ذلك كذلك أمراء صور وصيدا وموآب وعمون ، واعدين اياه بالمسـاعدة ، فانصاع صدقيا آخر الأمر الى تحريضهم وأعلن الثورة ، وعندئذ انقض « نبوخذ رصار » على أورشليم فأشاع فيها الخراب والدمار وأسر الشعب اليهودى كله وأخـذه ليعيش عيش العبيد فى بابل • أما صدقيا فقد قبض عليه وقتل ولديه أمامه ثم فقأ عينيه • ولكن أبريس لم يتحرك أثناء ذلك لنجدة صـدقيا ، كما أن حلفاءه الآخرين الذين كانوا يحرضونه ضد آشور لم يتمكنوا من نجدته لأن أبريس كان قد استولى على بلادهم • ولم يلبث نبوخذ رصار أن واصل زحفه الى صور فاستولى عليها وبسط سلطانه على فلسطين كلها ، فخابت بذلك آمال أبريس وكف عن التطلع الى آسيا •

بيد أن مصر على الرغم من ضياع ممتلكاتها الأسيوية كانت تعيش فى ذلك العهد متمتعة بالرخاء والنعيم ، فكانت الصحراء الغربية تدفع الجـزية اليها ، وكانت زراعتها مزدهرة وصناعتها متقدمة وتجارتها رائجـة • وقد واصل أبريس أعمال أسرته الاصلاحية ، الا أنه وقعت أحداث أطاحت به ، فقد وقع تمرد فى الجيش فأرسل أبريس أحد أقربائه المسمى أحمس للقضاء عليه، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك تزعم المتمردين وأجبر أبريس على اشراكه معه فى الحكم ثم لم يلبث أن قتله وجلس على العرش باسم « أحمس الثانى » •

احمس الثانى

وما أن قبض أحمس الثانى على زمام السلطة فى البـلاد حتى ظهرت كفايته ومواهبه ، واصبح مضرب الأمثال فى الحكمة والحزم • وقد أشـاد

هيرودوت بعظمته وكان يسميـــه « أمازيس » وذكر أن مصر بلغت في عهده ذروة عالية من الحضارة والرفاهية ، وأنها كانت وقتئذ تحوى عشرين ألف مدينة ٠

وكان أحمس الثانى قد رأى أن عدد اليونان بمصر ازداد زيادة عظيمة حتى أصبحوا مصدر كثير من المتاعب للمصريين ، فأصـــــدر أمره اليهم بأن يتجمعوا كلهم فى مدينة « نقراطيس » الواقعة غرب فرع رشيد بالدلتا وحظر عليهم الاقامة فى غيرها من المدن ، ومن ثم ازدادت أهمية هذه المدينة فما زالت تنمو وتزدهر حتى صارت فى مدة قصيرة أعظم مركز تجارى فى مصر ، وقد اصطبغت بالصبغة اليونانية الصرفة فى ادارتها وتجارتها وصناعتها وثقافتها وتقاليدها وكل مظاهر الحياة فيها ، وأصبحت همزة الوصل بين مصر وسائر المراكز اليونانية الأخرى فى أوروبا وآسيا ٠

وقد أنشأ أحمس الثانى جيشا قويا وصرف عليـــه أموالا طـــائلة ، استنفدت جانبا عظيما من موارد الدولة فاستعان بدخل المعابد ٠ كما أنشأ أسطولا ضخما استطاع بواسطته أن يخضع قبرص ويقسرها على دفع الجزية لمصر ٠ وكان هذا الأسطول نواة لقوة مصر البحـــرية بعد ذلك فى عهـد البطالمة ، حـــين استطاعت مصر بهذه القـــوة أن تسيطر على سواحل البحـــر الأبيض المتوسط ٠

بيد أن أحمس الثانى قد اتخذ جانب الحذر من الأشوريين فلم يتقدم لغزو فلسطين وسوريا كما فعل أسلافه ، ولا سيما أن نبوخذ رصار كان قد ظهر بجيوشه على حدود الدلتا الشرقية عام ٥٦٨ قبل الميلاد ٠ ولكن نبوخذ رصار لم يلبث أن توفى بعد ذلك بنحو ست سنوات فاختفى بذلك نفوذه العظيم كما ضعفت هيبة ميديا وبابل ٠ وفى ذلك الوقت ظهر خطر جـــديد فى الأفق الشرقى يتمثل فى دولة الفرس ٠ وكان الفرس فى بداية أمرهم يقطنون مساحة

ضئيلة من الأرض تقع شمال الخليج الفارسي ويعيشون على الزراعة ، ثم ظهر من بينهم حوالى عام ٥٥٠ قبل الميلاد قائد شجاع يدعى « كورش » ، جمع قبائل الفرس حوله وألف منها جيشا عظيما ثم انقض به على جيرانه الميديين فقضى على دولتهم فى فترة لا تتجاوز ثلاثة أعوام ، وبات بعد ذلك يهدد المنطقة كلها . فما أحس أحمس ملك مصر بهذا الخطر حتى سارع الى التحالف مع « نابو نعيد » ملك بابل الجديد و «كريسوس » ملك ليديا ، وملوك آسيا الصغرى ، بل تحالف حتى مع اليونان الذين كان البحر يفصل بلادهم عن آسيا ، لصد جحافل الفرس التى يقودها « كورش » . ولكن هذا كان أسرع من أولئك المتحالفين تدبيرا ، فقد انقض على آسيا الصغرى وبضربة خاطفة أخضعها له ، ثم بضربة أخرى سريعة استولى على سوريا وفلسطين . ثم أنشب مخالبه فى دولة الآشوريين ، فسرعان ما التهمها ، ثم أدار أنظاره بعد ذلك ناحية مصر ، ولكنه توفى قبل أن يصل الى أبوابها فجلس على عرش فارس فى مكانه ابنه « قمبيز » ، الذى كان يضاهيه قوة وقسوة ، فتأهب لغزو مصر . وكان أحمس فى هذه الأثناء يستعد لملاقاته ، ولكنه توفى عام ٥٢٥ قبل الميلاد بعد أن حكم أربعة وأربعين عاما أثبت فيها قوته وقدرته، فخلفه ابنه «بسامتيك الثالث » .

بسامتيك الثالث

وبمجرد أن جلس بسامتيك الثالث على عرش مصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد أقبل قمبيز ملك الفرس بجيش جرار وهاجم الحدود المصرية بينما هجم عن طريق البحر على « بلواز » وهى مدينة الفرما الحالية ، وقد تصدى له بسامتيك الثالث وقاومه مقاومة عنيفة ، ولكن بعض الجنود اليونان خانوه فاستطاع « قمبيز » أن يسيطر على الدلتا ، ومن ثم لجأ بسامتيك الى منف وتحصن فيها ولكن قبميز تعقبه وقبض عليه وقتله فانتهى بذلك عهد الأسرة السادسة

والعشرين . كما انتهى مجد مصر وانطوت صفحة سيادتها وسعادتها ،وسقط الشعب المصرى منذ ذلك الحين فى هوة سحيقة من المذلة والهوان على أيدى الغزاة والفاتحين من كل جنس وفى كل زمان .

وقد استمرت الأسرة السادسة والعشرون تحكم البلاد من عام ٦٦٣ الى عام ٥٢٥ قبل الميلاد أى نحو ١٣٨ عاما ، كانت من أكثر أعوام مصر مدنية ورفاهية ، حتى أطلق المؤرخون على عهدها « عهد النهضة المصرية » .

الأسرة السابعة والعشرون

وحين استتب الأمر لقمبيز فى مصر بعث بحملة للاستيلاء على واحة آمون ، وهى واحة سيوة الحالية ، ولكن زوابع الصحراء الرملية عصفت بالحملة وقضت عليها . ثم جهز قبميز حملة ثانية قادها بنفسه لفتح بلاد النوبة ، ولكنها ما كادت تتخطى الشلال الثالث حتى نفد الطعام منها ، فلما عض الجوع جنودها أكلوا الدواب التى كانوا يركبونها ، ولما نفدت هذه كذلك راحوا يأكلون بعضهم بعضا ، فعاد قمبيز الى مصر يملأ قلبه الغضب والغيظ . وقد صب جام غضبه وغيظه على المصريين . فبعد أن تظاهر فى البداية بالتودد اليهم واحترام ديانتهم ، انقلب عليهم وسامهم كل صنوف العذاب والتنكيل وأهان آلهتهم ، وكان أقسى من كل غاصب سبق أن استولى على بلادهم ، فكرهه المصريون كرها شديدا وناصبوه العداء فلم يجد بينهم من يتعاون معه أو يتمكن بواسطته من توطيد سلطته .

حتى اذا توفى قمبيز اعتلى عرش الفرس بعده « دارا الأول » وجاء لزيارة مصر محاولا أن يمحو الأثر السيء الذى تركه سلفه فى نفوس المصريين فأحسن معاملتهم واحترم آلهتهم واستكثر من الأعمال النافعة فى بلادهم ،

ولكنهم مع ذلك ظلوا على نفورهم من الفرس ، واحتملوا وطـــأة نيرهم على مضض ، بينما نفوسهم تتأجج بالثورة عليهم والتحفز لطردهم ٠

وتعد هذه الفترة التى وقعت فيها مصر تحت حكم الفرس عهد الأسرة السابعة والعشرين ، وقد استمرت نحو مائة وعشرين عاما ٠

الأسرات الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون

وقد استمرت ثورات المصريين على الفرس حق تمكن أحد أمراء الدلتا عام ٤٠٥ قبل الميلاد من الاستقـــلال بها وأسس الأسرة الثامنة والعشرين ٠ ثم جاءت بعدها أسرتان مصريتان كذلك ، هما الأسرة التاسعة والعشرون والأسرة الثلاثون ٠

ولم تصلنا من ملوك هذه الأسرات أى أخبار سوى أنهم قاموا ببنـــاء بعض المعابد فى طيبة ومنف وبعض جهات الدلتا ٠ وقد حاول الفرس مرات عديدة أن يستعيدوا نفوذهم فى مصر ، ولكن الجيش المصرى كان يردهم على أعقابهم ، حتى نجحوا أخيرا فى العودة الى مصر عام ٣٤٢ قبل الميلاد ٠ ولكنهم لم يلبثوا فيها غير عشرة أعوام ، اذ جاء الفاتح اليونانى الاسكندر الأكبر ، فطردهم منها عام ٣٣٢ قبل الميلاد ٠

وهكذا انتهى العصر الفرعونى فى مصر وهو أمجد عصر لأمجد أمة فى التاريخ ، وقد ظلت فيه مصر سيدة العالم حتى خانها الحظ ودار عليها الزمان وجار على أبنائها حكم الأقـــدار وظلم الأشرار ، فشربوا بعد العـــزة كأس الهوان ٠

الفصل الثانى

مظاهر الحضارة فى عهد الدولة الحديثة

١ — النظام الإدارى

ما أن تمكن أحمس الأول مؤسس الدولة الحديثة من طرد الهكسوس وتحرير البلاد من ربقتهم حتى وجه كل همته واهتمامه الى وضع أسس راسخة للدولة المصرية ، يمكنه أن يقيم على دعائمها لتلك الدولة العريقة كيانا ضخما وبنيانا شامخا • ومن ثم قبض على زمام البلاد بيد قوية قادرة ، وفرض كلمته على الجميع ، حتى لم يعد يجرؤ حاكم ولا أمير على معارضته أو مخالفة مشيئته، وأنشأ جيشا عظيما ليكون بمثابة الحربة التى يوجهها الى أعداء مصر ، والدرع الذى يحميها من المعتدين عليها • ومن ثم وطد سلطته على رعاياه فى الداخل ، وأكد قوته وسطوته أمام الطامعين فى مصر والطامحين الى غزوها فى الخارج •

فكان من مقتضى الأهداف التى رسمها أحمس الأول منذ البداية لدولته أن تكون دولة عسكرية يحكمها الفرد ويحميها الجيش • ومن ثم لم يسمح ببقاء نظام الاقطاع ، أو نظام اللامركزية فى الحكم فقضى على نفوذ حكـام الأقاليم واستولى على أملاكهم وضمها لأملاك العرش وجعلهم مجرد موظفين...

حكوميين ، وجعل السلطة والثروة كلها مركزة فى يد الملك • وبذلك أصبح الملك هو الرئيس الفعلى للدولة وصاحب السلطة المطلقة فى كل شئونها • وقد درج ملوك الدولة الحديثة على الاشراف بأنفسهم على كل كبيرة وصغيرة فى البلاد والاطلاع بصفة منتظمة ومستمرة على كل ما يرفعه اليهم وزراؤهم من التقارير عن أحوال المرافق المختلفة واصدار تعليماتهم بشأنها • وكانوا لا يقنعون بتصريف الأمور فى العاصمة ، بل كانوا لا يفتأون يسعون الى كل مقاطعة من المقاطعات القريبة أو البعيدة فى البلاد ، يستقصون أخبارها ويفحصون مشاكلها ويحرصون على توفير الراحة والرفاهية لأهلها ، كما كانوا يواظبون على المساهمة فى الشعائر والاحتفالات الدينية ، ويوجهون الى شئون العبادة أوفر نصيب من الاهتمام والاحترام •

وكان الوزير هو المسئول الأول أمام الملك عن كل شئون البلاد ، فكان يشرف على كل الشئون الادارية والمالية • كما كان يشرف على الشئون الحربية ، فكان يهيمن على الجيش والأسطول والحاميات العسكرية وقوات الشرطة والحرس ، ويتلقى التقارير التى ترسلها حاميات القلاع والحصون عما تراه من تحركات الأعداء على الحدود • وكان يشرف على المعابد وأملاكها وعلى طقوس العبادة واحتفالاتها • وكان يشرف على الشئون القضائية ، وينظر فى أحكام القضاة بمقتضى القوانين الموضوعة التى كانت تفرض عليه أن يحكم بالعدل والرحمة والمساواة ، فكان قصره ملجأ الشاكين والمتظلمين • وحين اتسع نطاق الامبراطورية أصبح للدولة وزيران أحدهما يقيم فى طيبة ويشرف على المنطقة الممتدة من حدود النوبة جنوبا حتى اسيوط شمالا ، والثانى يقيم فى عين شمس ويشرف على المنطقة الممتدة من اسيوط حتى شمال الدلتا ، أما ممتلكات مصر فى آسيا فقد كانت تحت ادارة حاكم مصرى يسمى « حاكم البلاد الشمالية » ، وكان يشرف على حكام الولايات الأسيوية الذين كان يختارهم فرعون من أمراء تلك البلاد المخلصين

لمصر • وكان يشرف على بلاد النوبة حاكم مصرى يلقبونه « ابن الملك حـــاكم كوش » •

أما حكام المقاطعات فبعد أن كانوا الحاكمين بأمرهم فى مقاطعاتهم قبل قيام الدولة الحديثة ، أصبحوا فى عهد هذه الدولة مجرد موظفين تابعـــين للحكومة المركزية يأتمرون بأمرها ولا يجرؤون عـــلى مخالفتها • وينبغى أن يكون الحاكم متضلعا فى القانون ، لأنه رئيس القضاة فى مقاطعتـــه ، وهو الذى يحكم فى القضايا ويرفع الأحكام الى الوزير باعتبـــاره رئيس حكام المقاطعات والرئيس الأعلى للقضاة •

وقد ازداد عدد الموظفين زيادة عظيمة فى عهد الدولة الحديثة ، واتسع أمامهم مجال الترقى الى أرفع مناصب الدولة ، مما أتاح الفرصة لتقدم الطبقة الوسطى من الشعب ، ولم تعد وظائف حكام المقاطعات قاصرة عــلى العائلات الأرستقراطية كما كان التقليد قد جرى من قبل ، وانما أصبح فى استطاعة الموظفين من أبناء الطبقة الوسطى أن يصلوا الى هذه الوظائف الكبرى •

وفى هذا العهد الذى ازدهرت فيه الامبراطورية المصرية كان الملوك لا يفتأون يغدقون الأموال الطائلة على المعابد ويغرقونها بالهـــدايا والعطـايا والهبات ، ولا سيما بعد عودتهم ظافرين من ميادين القتال • ومن ثم ازداد ثراء هذه المعابد زيادة فاحشة وازداد بالتالى نفوذ كهنتها ، فراحوا يتدخلون فى الشئون السياسية والادارية للبلاد ، حتى استطاع « حريحور » رئيس كهنة آمون أن يعتلى العرش ويؤسس الأسرة الحادية والعشرين •

وكان المفروض أن أراضى الدولة كلها مملوكة للملك ، فكان له الحق المطلق فى أن يهب ما يشاء منها للمعابد أو رجال الدولة المخلصين ، أويؤجرها الى رعاياه ليزرعوها نظير نسبة من المحصول • حتى اذا أهمل أحدالمستأجرين فى زراعة الأرض التى فى حوزته ينتزعها الملك منه ويعطيها لغيره • وهـــذا ما يسميه علماء العصر الحديث « نظام الاقتصاد الموجـــه » • وكان من أهم

واجبات الدولة ازاء ذلك أن تعمل على تنظيم وسائل الرى وتوفير كل الظروف الملائمة لأن تنتج الأرض للفلاح قدرا من المحصـــول يتمكن به من أن يوفر احتياجات حياته ، ويوفى للحكومة الضريبة التى تفرضها عليه ٠

وقد تدفق الأجانب على مصر فى عهد الدولة الحديثة ، ولا سيما منــذ انتهج تحوتمس الثالث سياسة اصطحاب أبناء الأمراء الأسيويين بعد فتوحه فى آسيا ليستبقيهم فى مصر كرهائن يضمن بها اخلاص آبائهم ، وليربيهم تربية مصرية حتى تمتلىء قلوبهم بحب مصر فيضمن بذلك ولاءهم له حـــين يعودون الى بلادهم ويتولون الحكم فيها ٠ وقد سار خلفاء تحوتمس الثالث على سياسته هذه ، ولا ريب أنها كانت سياسة حكيمة ولكنها أدت فى ذات الوقت الى تسرب نفوذ الأجانب فى البلاط المصرى ٠ بيد أن الأخطر من ذلك هو ما درج عليه الفراعنة فى هذا العهد من مصاهرة ملوك آسيا والزواج من أميرات أسيويات كن يأتين الى مصر مصحوبات بعـــدد عظيم من حواشيهن وجواريهن وأرقائهن فلا يلبث أن يتغلغل نفوذ أولئك فى القصر الملكى وفى شئون الحكم ، حتى وصل بعض الأرقاء الأجانب الى مناصب عالية فى الدولة، ومنهم « دودو » الذى أصبح ذا مكانة مرموقة فى بلاط اخناتون ٠ وكان لهذا النفوذ الأجنبى أسوأ الأثر فى افساد الأداة الحاكمة وتهـــديد الامبراطورية المصرية ٠ كما كان ثمة عنصر أشد من كل أولئك خطرا على الدولة ، وكان هو الذى أودى بها فى النهاية وأدى الى انهيارها ، وذلك هو الجنود المرتزقة الذين استعان بهم بعض الفراعنة فى الجيش المصرى على نطاق واسع ، حتى لقد بلغ عددهم فى وقت من الأوقات ضعفى عدد الجنود المصريين ٠ ولم يفتأ نفوذ أولئك المرتزقة ــ ولا سيما الليبيين ــ يتفاقم حتى ارتقى بعضهم الى أرفع المناصب فى الدولة ٠ ثم توصلوا آخر الأمر الى اغتصاب العرش فى عهـــد الأسرة الثانية والعشرين ٠

وقد تبين للمصريين حين حلت بهم نكبـــة الاحتـــلال والاذلال على يد

الهكسوس أنهم لن يعيشوا فى سلام وطمأنينة طالما أن قوى الشر تحيط بهم وتتربص على الحدود للانقضاض عليهم ، فما تخلصوا من ربقـــة الهكسوس واستعادوا حريتهم حتى بادروا الى تكوين جيش قوى يتـــولى حمايتهم من أعدائهم ويقضى على مراكز العدوان التى لا تفتأ تهددهم • وبعد أن كان تجنيد الجيش لا يتم فى العهود السابقة الا وقت الحاجة اليه فى ظروف طـــارئة لمواجهة غزو من الخارج أو القيام بحملة تأديبية وتشترك فيه القوات التابعة للمقاطعات المختلفة ، ثم يعود جنودها بعد انتهاء الظروف الطارئة الى مقاطعاتهم لاستئناف أعمالهم الأصلية من زراعة أو صناعة أو غير ذلك من الأعمـــال العادية ، أصبح جيش الدولة الحديثة جيشا دائما يقوم على التقاليد العسكرية ويؤدى مهمة مستمرة هى خوض غمار الحرب الدفاعية أو الهجومية • وقد جعل هذا الجيش لمصر هيبة عظيمة فى كل أنحاء العـــالم المعروف فى ذلك الوقت • وقد تمكن به فراعنة مصر من انشاء الامبراطورية المصرية العظيمة • وكان فرعون هو القائد الأعلى للجيش وهو الذى يتقدمه فى القتال • وقد جرت العادة فى ذلك العهد على تنظيم الجيش بتقسيمه الى فيالق لكل فيلق منها اسم خاص وعلم خاص • وكان من أثر ارتفاع شأن الجيش أن ازداد الاقبال على الانخراط فى سلكه لا بين عامة الشعب فحسب ، وانما كذلك بين أفراد الطبقة الوسطى وطبقة الأمراء والأثرياء تطلعا الى الرتب العليا فى الجيش وما يكتنفها من بريق البطولة والمجد • ومن ثم تكونت من كبـــار الضباط والقواد طبقة أرستقراطية جديدة احتلت مكانة مرموقة فى الدولة ، وأصبح الجيش مجالا لاظهار الشجاعة والشهامة والتفانى فى الدفاع عن الوطن والكفاح فى سبيل ارتفاع شأنه واتساع رقعته • وقد أبدى المصريون من رجال الجيش عند احتدام القتال بينهم وبين الأعداء من ضروب الرجـــولة والاستبسال ما أصبح فى كل أنحاء الأرض مضرب الأمثال • ولا شك أنهم اضطروا - فى غزواتهم وفتوحاتهم وما خاضوه من مواقع حربية - الى انتهاج سبيل العنف والعسف شأنهم فى ذلك شأن المحاربين فى كل زمان ، ولكنهم

مع ذلك لم يرتكبوا ما كان يرتكبه غيرهم من المحاربين فى عصورهم من صنوف القسوة والبطش والتنكيل واحراق المدن واغراق ساحات القتال بسيول من دماء النساء والشيوخ والأطفال ، فلم يفقأوا عيون الملوك من أعدائهم كما فعل السومريون ، ولم يجعلوا جماجم أعدائهم مشاعل يوقدونها فى احتفالات نصرهم كما فعل الأشوريون ، ولم يجبروا أسراهم على منازلة الوحوش كما فعل البابليون والرومان . بل كانوا أقرب الى الرحمة والرفق فى القتال ، والتسامح والعفو بعد احراز النصر . وقد ضرب تحتمس الثالث أروع الأمثال فى البر بالأعداء المستسلمين ، حين ظل يحاصر مدينة « مجدو » سبعة شهور حتى أعلن أهلها الطاعة وأرسلوا أبناءهم اليه يحملون الجزية فعفا عنهم ، بل قيل أنه كافأهم . وكان هذا ما فعله رمسيس الثانى كذلك غداة انتصاره على الحيثيين فى معركة قادش ، حين استعطفه الأعداء ليعفو عنهم فعفا وقفل راجعا الى بلاده . فكان المصريون يعتبرون الحرب ضرورة لابد منها لدفع الخطر عن بلادهم ، وليس وسيلة الى تعذيب الشعوب وتخريب أوطانها ، وكانوا هم أول أمة من الأمم تلتزم فى حروبها بمبادىء الأخلاق وتعاليم الدين . فما كان فرعون ينتصر فى ميدان القتال حتى يعود الى بلاده ويتجه فورا الى معبد آمون حيث يقيم الصلاة ويقدم القرابين شكرا وامتنانا وعرفانا بفضل المعبود فيما أحرزه من نصر .

٢ — الحياة الاجتماعية

وقد تدفقت الخيرات على مصر فى عهد الدولة الحديثة من كل أنحاء امبراطوريتها العظيمة التى كانت تمتد من نهر الفرات شمالا الى الشلال الرابع جنوبا . وكانت الغنائم الناجمة عن الحروب وأموال الجزية التى نفرضها مصر على الشعوب المغلوبة ، والهدايا التى يبعث بها ملوك الأمم

الأخرى وأمراؤها تقربا الى فرعون واسترضاء له ، لا تفتأ تنهال من كل جانب على خزائن الدولة ومخازنها ، فازدادت ثروة البلاد زيادة لم تر لها مثيلا من قبل ، وفاض عليها النعيم والرخاء ، وعرف كثير من أبنائها حيـــاة الترف والرفاهية ، فأقاموا المنازل الفخمة ، وملأوها بالرياش الفاخرة ، والأبسطة الثمينة والأرائك المطعمة بالعاج والأبنوس والمغلفة بالذهب والفضة ، وزينوا جدرانها بالرسوم البديعة ذات الألوان الرائعة ، وأحاطوها بالحدائق الغناء الزاخرة بأشجار الفاكهة والأزاهير والرياحين ، تتخللها جداول الماء وتتوسطها البحيرات الجميلة ذات الرونق والرواء ، وارتدوا الملابس الناعمة الفضفاضة ، وزينوا رؤوسهم بالشعر المنمق المنسق فى جدائل طـــويلة تنســـدل على الأكتاف ، ولبسوا فى أقدامهم الأحذية الرقيقة الدقيقة الصنع . وتجملت النساء بالحلى التى لا تضارعها فى روعتها وبراعة صناعتها أبدع المنتجـــات الحديثة من عقود وقلائد وأساور وخواتم وأقراط مصنـــوعة من الذهب أو الفضة ومطعمة بالأحجار الكريمة أو الزجاج الملون . كما استخدمت النساء كثيرا من أدوات الزينة التى نعرفها اليوم من أمشاط ودبابيس ومكاحـــل ومراود ومرايا ومساحيق وعطور .

وتتجلى الحياة الاجتماعية فى أرقى وأروع صورها فى ذلك العهد فيما كان يقيمه سراة المصريين من ولائم ومآدب وحفلات كانوا يستخدمون فيهـــا آنية وأباريق وأكوابا وصحافا من الخزف والبللور والذهب والفضة ،وينعمون فيها مع الأصدقاء والأصفياء بأسباب الفرح والمرح ، ومظاهر المودة والتعاطف والأخاء ، ويستمعون الى الموسيقى والغناء ، ويستمتعون بمشاهدة أنواع من التمثيل وألوان من الرقص التعبيرى الجميل .

وقد أصبحت طيبة فى هذا العهد تضارع أعظم عواصم الامبراطوريات الكبرى بأبنيتها الشامخة وصروحها الشاهقة ومعابدها الضخمة وقصـــورها الفخمة ، وشوارعها الواسعة وميادينها الشاسعة وحدائقها اليانعة وزيناتها

العظيمة واحتفالاتها المستديمة ، وأعيادها المتعددة ، وأفراحها المتجددة ،كأنها بابل فى سالف عهدها أو روما فى قمة مجدها • فكانت قبلة أنظار الشعوب من كل بقاع الأرض • وكانت تتبدى فى أروع حللها أثناء الاحتفال بعيد تتويج فرعون ، اذ كانت تزخر فى ذلك الاحتفال بمئات الألوف من مختلف طبقات الشعب يتقدمهم موكب عظيم على رأسه فرعون يحف به كبار الكهنـــة وقد حملوا تماثيل ملوك مصر العظماء مينا ومنتوحتب الثانى وأحمس الأول ، أصحاب الفضل فى توحيد البلاد بعد تفككها ومؤسسى عهود نهضتها الكبرى • وكذلك فى احتفالات النصر حين كان الشعب يستقبل فرعون وهو عائد من ميدان القتال الى طيبة بعد أن هزم أعداءه ، ويتبعه الى معبد آمون حيث يقدم فروض الشكر والولاء للاله على ما أولاه من نصر وما حباه من مجد وفخر • ومن أروع الأمثلة على ذلك الاحتفالات التى أقيمت فى طيبة ابتهاجا بانتصار تحتمس الثالث فى موقعة « مجدو » ، وبانتصار رمسيس الثانى فى موقعـــة « قادش » ، فقد كانت من أضخم وأفخم الاحتفالات التى جرت فى مصر ، بل فى العالم القديم كله •

وقد ارتفع شأن الطبقة الوسطى فى هذا العهد ، بارتفاع شأن الجيش وازدياد عدد الموظفين واتساع نطاق التجارة واطراد تقدم الصناعة ، فكـــان ضباط الجيش وكبار الموظفين وأرباب التجارة والصناعة هم عماد هذه الطبقة التى أصبح لها كيان متميز يتوسط بين طبقة الملوك وكبار الملاك وطبقة الفقراء من الفلاحين والعمال ، وأصبحت ذات أثر خطير فى الحياة الاجتماعية وذات دور كبير فى نظام الدولة ، اذ ارتفع أبناؤها الى أرفع المناصب وأصبح منهم حكام المقاطعات وقواد الجيش وغالبية المسئولين وصفوة الأثرياء والمثقفين فى البلاد •

أما الحياة العائلية فى هذا العهد فقد استقرت واستمرت على مراعـــاة الآداب الموروثة والتقاليد العريقة والحكمة العميقة التى انطوت عليها تعاليم

الآباء والأجداد . وقد ظهر فى هذا العهد عدد آخر من كبار الحكماء وعلى رأسهم « آنى » ، لم يتوانوا عن الحض على احترام الأسرة والتبكير بالزواج وحب الزوجة والحدب على الأبناء ورعايتهم والبر بالوالدين وخدمتهما واتقاء الله فى معاملة الناس جميعا . فكانت هذه التعاليم هى نبراس المجتمع وأساس الحياة الاجتماعية .

٣ ــ العقائد الدينية

وقد ترتب على قيام الدولة الحديثة واتخاذ طيبة عاصمة لملوك الأسرة الثامنة عشرة أن ارتفع شأن الاله المحلى لهذه المدينة وهو آمــون ، فأصبح يضارع فى منزلته رع وأوزوريس وبتاح ، وأصبح هو الاله الرسمى للدولة ، حتى اذا سيطرت مصر على الأقطار المحيطة بها فى أفريقيا وآسيا وتكونت الامبراطورية المصرية أصبح آمون هو الاله الرسمى للامبراطورية كلها ،فكانت تقام المعابد فى تلك الأقطار لهذا الاله أولا ثم لرع وبتاح بعد ذلك . وقد نسب المصريون الى آمون انتصارهم على الهكسوس ، ثم انتصارهم بعد ذلك على كل البلاد التى حاربوها . ومن ثم كان لمعابد هذا الاله النصيب الأكبر من غنائم الحرب والجزية المفروضة على البلاد المقهورة ، وبالتالى تزايدت ثروة كهنة آمون وتزايد نفوذهم حتى أصبح رئيسهم أعظم شخصية فى الدولة بعد الملك . ولم يعد نفوذه قاصرا على الشئون الدينية وانما تعداها الى الشئون السياسية والادارية فى البلاد .

ولم يكتف الكهنة فى عهد الدولة الحديثة بالثراء الذى انهال عليهم من كل أنحاء الامبراطورية ، وانما راحوا كذلك يتاجرون بالدين . وذلك انهم راحوا يصورون للناس أن الطريق الى جنـــة أوزوريس محفوف بالعقبـــات والعراقيل ، ملىء بالأرواح الشريرة التى تتربص بأرواح الناس لتهلكها . ثم

أوهم الكهنة الناس بأن فى استطاعتهم أن ينقذوا أرواح موتاهم من تلـــك المخاطر التي تعترض طريقهم الى الجنة بكتابة الأحجبة والتعاويذ الذى تنطوى



« الاله آمون »

على قوة سحرية تهزم الأعداء السفليين وتقود أرواح الأموات سالمة الى الجنة ثم تحقق لها هناك كل ما تطلب أو تشتهى ٠ فاندفع الناس الى الكهنة يلحون

في طلب هذه الأحجبة والتعاويذ ويجزلون لهم في نظيرها العطـــاء • وقد امتلأت توابيت الموتى بهذه الأعمال السحرية في هيئة نقوش على جدرانها أو برديات في داخلها • واذ كان الناس يعتقدون أن الروح تعترف بذنوبها أمام محكمة أوزوريس ، مما يعرضها لدخول الجحيم ، أوهمهم الكهنـــة أن في استطاعتهم منع الروح من الادلاء بهذا الاعتراف وكبت كل صوت خارج من القلب فلا يسمعه أوزوريس ، فكانوا يضعون على موضع القلب من جثة المتوفى تمثال جعران صغير يكتبون عليه « أي قلبي ، لا تكن شاهدا ضدي » • وراح الكهنة يبيعون للناس لفافات من البردي تتضمن بعض التعاويذ الواردة في « كتاب الموتى » ، موهمين اياهم أنها تضمن لهم غفران ذنوبهم ودخول الجنة بغير حساب • ثم تفننوا في سلب ألباب العامة ، فوضعوا كتابا سموه «كتاب الدار السفلى » وكتابا آخر سموه « كتاب الأبواب » ، شرحوا فيهما المسالك التي ينبغي أن تسير فيها الروح الى الجنة كي تتجنب الأهوال المتربصة لها — في زعمهم — على طول الطريق • ومن ثم سمم الكهنة في هذا العهد عقول البسطاء بهذه الخرافات السحرية • ومن دواعي الأسف أن هذه الخرافات وجدت كذلك مرتعا خصبا بين أبناء الطبقة الوسطى ، مما أدى الى ضـــعف الوازع الديني، والرادع الذي تتضمنه مبادىء الدين الأصيلة ، لأن الكهنة سهلوا لأي انسان مهما كثرت ذنوبه وعظمت آثامه أن ينال الغفران لو أنه اشترى منهم اللفافات البردية وسلك الطريق الذي رسموه له في كتبهم الى الجنة • وقد فتح الكهنة بأيديهم الباب الى انحطاط الديانة بعد أن عملوا على تعقيدهـا وخلطها بالخرافات والخزعبلات ، فبدلا من أن يكونوا قادة الشعب ويعلمـوه ويعظوه ويلقنوه مبادىء الدين الحقيقي ويبتعدوا به عن الضلالات والأباطيل، كانوا هم حجر العثرة في طريق ايمانه وتقواه ، وضربوا له المثل السيء في التصرف والسلوك ، اذ جعلوا كل همهم زيادة نفوذهم واقتناص المنافع وجمع الثروات ، ومن ثم أصبح الشعب كقطيع من غير راع ، فراح قوم منه — بعد

أن زهدوا في عبادة الآلهة المصرية ـ يعبدون الآلهــــة التي رأوا الأسرى الأسيويين يعبدونها مثل « بعل » و « كدش » و « اســـتارت » و « رشب » و « أناث » و « سوتخ » ، وراح فريق آخر يعبد الآلهة المحلية الصغيرة التي توهموا أنها أقدر على النفع والضرر من آلهة الكهنة ، بل راح فريق ثالث من البسطاء يعبد آلهة اخترعوها لأنفسهم وتمثلوها فيما يحيط بهم من أحياء ، بل من حيوانات ، وراح كل أولئك يخلطون عباداتهم بالسحر والشعوذة ، وقد أفلت قيادهم ، فاتجه كل منهم في سبيل ٠

وفي ظلام هذه الفوضى التي سادت المعتقدات المصرية بزغ نجم يتلألأ بنور لم يسبق لمصر ، بل للدنيا كلها ، أن شاهدت مثيـــلا له ، وذلك هو اخناتون ، الذي تشبه سيرته سيرة الأنبياء ، والذي جلس على عرش مصر ودانت له امبراطوريتها المترامية الأطراف ، ولكنه مع ذلك زهد في مظاهر الدنيا ومطامعها وأمجادها ، وعاش عيشة الناسك المتبتل ، اذ هداه فكـــره الثاقب وشعوره المرهف الى الايمان بوجود الله الواحد القدير ، الموجد لكل شيء ، فأطلق عليه اسم « آتون » وانقطع لعبادته في ورع وتقوى ، وقضى عمره يبشر الناس بعقيدته القويمة وتعاليمه السامية ، ويلاقي في سبيل ذلك من الآلام والمتاعب ما لاقاه الرسل والقديسون في كل عصر : فقد رأى ما ألحقه الكهنة بالديانة المصرية الأصيلة من تحريف وتشويه ، وما أدخلوه عليها من سحر وشعوذة ، فاعتزم القضاء على نفوذهم ، وصمم على تحريم عبادة آلهتهم التي ابتدعوها واخترعوا ما لها من صفات ، وما بينها من صلات ، واتخذوها أداة لتحقيق أغراضهم ومطامعهم ، وسبيلا الى اكتســـاب الثروة والتمتـــع بالجاه ٠ ومن ثم اتحدوا جميعا ضده وناصبوه العداء وحاربوه حربا لا هوادة فيها ٠ ولكنه صمد لهم ، وصد هجماتهم عليه في صلابة وصبر ، ومضى في طريقه لا يتراجع ولا يتضعضع ولا تثنيه العقبات أو المصاعب عن ايمانه ، أو تقعد به عن نشر ذلك الايمان بكل وسيلة وفي كل مكان ٠ بيد أن الكهنـــة

استمروا فى حربهم ضده وفى حقدهم الذى يضمرونه له حتى استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا عليه · وبذلك انطفأ ذلك النجم الذى أضاء بالايمان الصادق الصافى ظلام تلك العصور السحيقة ، وانطفأت معه عبادة «آتون» الاله الواحد الذى تدل صفاته ـ كما عرفها أخناتون ـ على أنه هو الله الأزلى ذاته ـ ومن ثم استرد الكهنة نفوذهم السابق ، وفرضوا على المصريين عبادة آلهتهم القديمة ، ولا سيما آمون الذى استعاد مكانته الأولى ، وعاد الها رسميا للامبراطورية المصرية فى عهد « توت عنخ آمون » ·

ثم بعد عهد الملك « حور محب » حكمت مصر أسرة من الدلتا ، وقد أراد ملوكها أن يحدوا من نفوذ كهنة آمون الذين استفحل أمرهم مرة أخرى ، فنقلوا مقر حكمهم من « طيبة » وهى مركز عبادة آمون · وبعد أن كان هذا الاله هو المعبود الرسمى الأوحد للدولة أشركوا معه رع وبتاح وست ، فصار أولئك جميعا هم الآلهة الرسميون ·

وكانت المعابد فى عهد الدولة الحديثة تميل الى الضخامة والفخامة وروعة العمارة وبداعة الفن ، مما يتمشى مع عظمة الامبراطورية فى ذلك العهد وثروتها ونهضتها ، فكانت تلك المعابد تبعث فى النفس شعورا عميقا بالرهبة والهيبة والاجلال نحو القوة الالهية ذات الغموض والجلال · وقد كان يحيط بكل معبد سور عظيم ، وينتصب عند مدخله صرح شامخ ، حتى ليبدو كأنه مدينة من مدن السماء العالية المتعالية عن الدنيا وما فيها من أحياء ، ويتخيل المرء وهو يدلف اليها أنه ابتعد عن عالم الناس ودخل فى عالم الآلهة · وأروع مثال للمعابد فى ذلك العهد ، معابد طيبة ولا سيما المعبد الذى أقامه أمنحتب الثالث فى الأقصر للاله آمون ، وقد تحققت فيه الفكرة المثالية لعمارة المعابد فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وكذلك معبد الكرنك الذى يعد بهو الأعمدة الذى فيه من عجائب فن العمارة فى العالم ، وذلك غير معابد الرمسيوم والدير البحرى ومدينة هابو ، ومعبد سيتى الأول فى أبيدوس ومعابد رمسيس

الثانى ببلاد النوبة ولا سيما « أبو سنبل » ، وقد عمل تحتمس الأول على اصلاح ما أتلفه الهكسوس من المعابد المصرية ، كما أصلح معبــد أوزوريس بالعرابة المدفونة ٠

وقد بلغت ثروة الامبراطورية المصرية أرفع درجاتها فى عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين ، ومن ثم ارتفع دخل المعابد المصرية مما كان الملوك يغدقونه عليها من غنائم وعطايا وهبات ، حتى لقد بلغ عدد العبيــد المخصصين لخدمتها نحو مائة ألف عبد ، وبلغت أملاكها نحو سبعمائة وخمسين ألف فدان من الأرض ونصف مليون رأس من الماشية ٠ كما بلغ عدد المدن المحبوسة عليها نحو مائة وسبعين مدينة فى مصر وآسيا والنوبة ٠ وكان حوالى ثلثى هذه الأملاك من نصيب معابد آمون ٠ أما الثلث الباقى فكان مقسما بنسب مختلفة على معابد الآلهة الآخرى ٠ وكان آمون يملك ٤٣٣ حديقة من حدائق المعبودات التى يبلغ مجموعها ٥١٣ حديقة ٠ وكان آمون ينفرد بملكية كل ذهب النوبة ، ولذلك كانوا يسمونها « أرض آمون الذهبية » ٠ وكان ايراده من الفضة يزيد سبعة عشرة مرة عن ايراد كل المعبودات الأخرى ٠ وكان ايراده من النحاس يزيد واحدا وعشرين مرة عن ايرادات كل المعبودات الأخرى ٠ وكان ما يملكه من السفن عشرة أضعاف ما تملكه كل المعبودات الأخرى ٠ ومن ثم كانت سلطة كهنة آمون لا تضارعها الا سلطة الملوك أنفسهم ، بل كان الملوك يخشونهم ويحسبون لهم ألف حساب ، لأن أى واحد من أولئك الملوك اذا أغضبهم كان لا يستمر على العرش طويلا ٠

ولم يفتأ نفوذ كهنة آمون يزداد حتى استطاع كبيرهم « حريحور » أن يغتصب العرش — كما سبق أن رأينا — وأسس الأسرة الحادية والعشرين ٠ ولكن حكمهم انتهى بالخيبة والفشل ، وقد عادوا بالبــلاد الى حالة الفوضى والتمزق ، ولم يلبث حكام المقاطعات أن استولوا على السلطة وجلس أحدهم على العرش وأسس الأسرة الثانية والعشرين واتخذ مقره فى بوبسطة ، ومن

ثم أصبحت الالهة « باست » معبودة هذه المدينة هى الالهـــة الرسمية فى الدولة . الا أن نفوذ ملوك هذه الأسرة وكذلك ملوك الأسرة الثالثة والعشرين لم يكن شاملا البلاد كلها ، ومن ثم تفككت أواصر الوحدة حتى جاءت الأسرة الخامسة والعشرون فأعادت للبلاد وحدتها وعادت الى اعتبـــار آمون الاله الرسمى للدولة ، ومن ثم استعاد هذا الاله نفوذه ، وازداد سلطانه بدرجة لم يسبق لها مثيل . ثم غزا الأشوريون مصر وظلت رازحة تحت نيرهم حتى طردهم بسامتيك الأول وأسس الأسرة السادسة والعشرين . وقد أعلن ملوك هذه الأسرة أنهم أبنـــاء الاله رع ، وأنهم فى ذات الوقت أبناء الالهة « نيت » معبودة « سايس » ، واستمر الحال كذلك حتى غزا الفرس البلاد واستولوا عليها .

٤ ـــ الحياة الثقافية

وقد ازدهرت الحياة الثقافية فى عهد الدولة الحديثة بدرجة تتناسب مع ازدهار الامبراطورية المصرية وارتفاع شأنها واتســـاع رقعتها وشمولها لأغلب الأقطار المعروفة فى العالم القديم ، ومن ثم تفاعلت الثقافة المصرية مع غيرها من ثقافات البلاد التى خضعت لمصر فى ذلك العهد أو ارتبطت بهـــا ارتباطا سياسيا أو تجاريا ، فانبثق عن ذلك ينبوع الأدب المصرى فى أروع أساليبه وأبدع معانيه .

وقد كان لانتصار رمسيس الثانى فى معركة قادش أبلغ الأثر فى حياة المصريين الفنية كما كان له أبلغ الأثر فى حياتهم الأدبية . فقد رأينا كيف ألهمت هذه المعركة الرسامين والمثالين فصوروا وقائعها فى رسومهم وتماثيلهم أبرع تصوير ، وقد ألهمت هذه المعركة كذلك الشعراء فنظموا القصائد البليغة فى تمجيدها والاشادة بما أبداه رمسيس الثانى فيها من شجاعة فى مواجهة

الأعداء وبراعة فى فنون القتال ، وأبدوا فى ذلك من دقة الوصف ورقة العبارة وصدق الشعور ما يضعهم فى مرتبة الشعراء العالميين · وقد وصلت الينا احدى هذه القصائد ، وهى المسماة قصيدة بنتاؤور ، وهى مثال رائع للشعر فى ذلك العهد الزاهر من عهود النهضة المصرية ·

وقد شغف أدباء هذا العهد بكتابة القصة · وقد صاغوها فى أسلوب رشيق ، وأكثروا فيها من عناصر البلاغة وعوامل التشويق ، وصوروا خلالها ما يسود مجتمعهم من عقائد وتقاليد ، وعبروا بواسطتها عما يخالجهم من آلام ، أو يراودهم من آمال ، أو يمر بهم من هزيمة مريرة أو انتصار مجيد · ومن ذلك « قصة أبوفيس ملك الهكسوس وسقننرع أمير طيبة » وفيها يصف الكاتب ما لاقاه المصريون من مكائد الهكسوس ومظالمهم ، ثم يصف جهود المصريين لطردهم وتحرير البلاد من ربقتهم · و « قصة الاستيلاء على مدينة يافا » ، وفيها يصف الكاتب حيلة لجأ اليها « تحوتى » قائد جيوش الملك تحتمس الثالث ، اذ وضع خمسمائة من جنوده فى غرارات وأدخلهم خلسة الى مدينة يافا فأمكنه بذلك الاستيلاء عليها · و « قصة الأمير المصرى وابنة ملك النهرين » وفيها يصف الكاتب ما قام به أحد الأمراء المصريين من أعمال البطولة حتى فاز بقلب ابنة ملك النهرين وتزوجها · و «قصة الأخوين » وتتلخص فى أن شابا كان يعيش مع أخيه المتزوج ، وقد أغرته زوجة أخيه فانتهرها وعندئذ حنقت عليه واتهمته لدى أخيه كذبا ، فكاد أخوه أن يقتله ، لولا أن عرف الحقيقة فصفح عنه · وغير ذلك من القصص الوصفية والعاطفية التى أخذت بمجامع قلوب المصريين فى ذلك العهد ·

بيد أن أغلب أدبيات الدولة الحديثة تصطبغ بالصبغة الدينية ، ومن أبرزها « كتاب الموتى » وهو يتضمن ما ابتدعه الكهنة من وصف للحياة فى العالم الآخر وما تصادفه الروح وهى فى طريقها اليه من عقبات وصعوبات ووحوش وأرواح شريرة تتربص لها · كما يتضمن شرحا للوسائل الكفيلة

بالنجاة من كل هذه المخاطر ، وبيانا للمسالك التى تؤدى بالروح سالمة الى الجنة . وذلك فضلا عما ابتدعه الكهنة كذلك من وصف لمحكمة أوزوريس وكيفية محاكمة الروح أمامها ، والتعاويذ السحرية التى زعموا أنها تكفل عطف المحكمة على المذنبين وتخفيف العقوبة التى تحكم بها عليهم . ومن ثم حرص المصريون على أن يضعوا هذا الكتاب مع جثث موتاهم . كما وضع الكهنة فى هذا العهد كتابين آخرين هما « كتاب الدار السفلى » و « كتاب الأبواب » ، وقد شرحوا فيهما بعض فصول « كتاب الموتى » فى شىء من الاسهاب والتفصيل . ومن أبدع الآثار الدينية التى تتسم بالبلاغة وروعة الصياغة فى ذلك العهد كذلك الأناشيد التى كان المصريون يترنمون بها فى المعابد ولا سيما أناشيد آمون ، التى نلمح فيها كثيرا من الأفكار السامية عن القوة الالهية ، ونستشف منها ايمان المصريين الراسخ بالله رغم كل ما أحاط بذلك الايمان من خرافات اخترعها الكهنة وشوهوا بها الديانة المصرية كل تشويه .

٥ _ الفنون

وقد تدفقت الثروة على مصر فى عهد الدولة الحديثة بفضل الغنائم الوفيرة التى غنمها المصريون من فتوحهم ومن الضرائب التى كانت تنهمر عليهم من أنحاء الامبراطورية الشاسعة ، فاتسمت حياتهم بالأمن والرخاء ، ومن ثم ترعرعت الفنون فى تلك الظروف المواتية لنمائها وارتقائها . وقد أغدق الملوك أموالا طائلة على الفنانين فظهرت مواهبهم وازدهرت عبقرياتهم وأبدعوا كل ابداع . وقد ذاعت من بينهم شهرة « أمنحتب » الذى ظهر فى عهد الملك امنحتب الثالث ونبغ فى العمارة والحكمة وظلت شهرته تتجاوب فى أنحاء مصر بعد وفاته بأكثر من ألف عام ، وارتفع فى عهد البطالمة الى مرتبة الاله وكانوا يسمونه « أمنحتب بن حابو » .

وقد ابتكر المهندسون المصريون في هذا العهد طرازا جديدا في العمارة يأخذ بالألباب ، فأقاموا الصروح الشاهقة التي بهرت العقول بضخامتها وفخامتها وروعة زينتها وزخرفتها . ومن أبدع الأمثلة على ذلك معبد آمون الذي أقامه أمنحتب الثالث في الأقصر ، والعمارات الباذخة التي أقامها ملوك هذا العهد في معبد الكرنك ، وأقاموا بها الأعمدة التي لا مثيل في التاريخ لضخامتها ، وملأوا جدرانها بالرسوم الرائعة البديعة الألوان،وغلفوا سقوفها بالذهب وكسوا ارضياتها بالفضة ، ونصبوا في أبهائها المسلات الشامخة التي تتلألأ بالمعادن الثمينة فتبهر الأنظار بسنائها ، وصنعوا أبوابها من كتل هائلة تزن عدة أطنان من خشب الأرز المزخرف بالبرنز والمطعم بالذهب والفضة ، واستخدموا في كل ذلك من فنون العمارة والنحت والنقش والرسم والصياغة ما يذهل العقول ولا يزال يثير الدهشة لدى العالم كله .

ومن أكثر آثار الدولة الحديثة عظمة وخلودا عمارات الدولة التاسعة عشرة ، ولا سيما معبد سيتي الأول في أبيدوس ، ومعبد رمسيس الثاني في طيبة ، ومعابده المنحوتة في صخور النوبة ، ومعبد رمسيس الثالث في العرابة المدفونة . وقد انفرد كل من هذه المعابد بطابع يميزه ، ولكنها جميعا تشهد بجبروت المهندسين والفنانين الذين وضعوا تصميمها وأنشأوها ، ولا سيما بهو الأعمدة بمعبد الكرنك الذي وضع أساسه رمسيس الأول ثم أكمل بناءه سيتي الأول ، ثم رمسيس الثاني ، وجمعوا فيه الجمال والجلال والضخامة في اطار واحد ، وجعلوا منه أعجوبة العمارة في كل العصور . وقد رفع المهندسون المصريون سقفه على مائة وأربعة وثلاثين عمودا ضخما وأرادوا أن ينشئوا في وسطه ممرا عظيما تعبره المواكب الدينية الضخمة في أعياد آمون ، ففي سبيل ابراز هذا الممر وتحديده بصورة تتميز بالمهابة والرهبة جعلوا على جانبيه صفين من الأعمدة الهائلة التي يتجاوز ارتفاع كل منها عشرين مترا ، ويبلغ قطره عشرة أمتار ، ونحتوا تاج كل من هذه الأعمدة على هيئة باقة من زهور البردى المتفتحة الأكمام بحيث يتدرج في الاتساع حتى

تغدو قمته رقعة عظيمة تنفسح لوقوف عشرات من الناس مجتمعين • وقد أصبح الممر الأوسط الذى تحف به تلك الأعمدة يقسم البهو الى جناحين ضخمين تبلغ مساحتهما أكثر من خمسة آلاف متر مربع ، وقد أقاموا فى كل من هذين الجناحين عددا عظيما من الأعمدة الشاهقة التى تبدو كأنها غابة هائلة من الأشجار الباسقة ، ونحتوا تاج كل من تلك الأعمدة على هيئة باقة من زهور البردى المضمومة الأكمام ، ولكنهم جعلوا أعمدة الجناحين أقل ارتفاعا من أعمدة الممر الأوسط ، ليضفوا على البناء كله - عن طريق الفروق بين المسطحات - مزيدا من الروعة والجمال • ثم وزعوا الألوان والأصباغ على سيقان الأعمدة وتيجانها ، ووزعوا الزخارف والزينات على السقوف والجدران والأعتاب والأبواب على نسق لا نظير له بين العمائر والبنايات ، فكان ذلك البهو تحفة الزمان وآية الآيات •

وقد نبغ المصريون فى عهد الدولة الحديثة فى نحت التماثيل ، ولاسيما تماثيل الملوك الذين أتوا من جلائل الأعمال فى هذا العهد وفتحوا من الممالك وأخضعوا من الشعوب ما جعلهم موضع الهيبة والرهبة والاجلال • وقد اجتهد المثالون فى اضفاء هذه الصفات على تماثيل الملوك • وكان توفيقهم فى ذلك يفوق الوصف • كما امتازت الدولة الحديثة ببراعة فنانيها فى نقش الجدران وزخرفتها البارزة وتزيينها بالألوان الجميلة • وقد تميزت أساليب النحت والنقش والرسم فى بداية عهد الدولة الحديثة بطابع الوقار والاتزان، فالتزمت في تصوير الفراعنة بروح المثالية والجلال ، وأبرزت ما اتصفوا به من نبل وبسالة وجمال • ويبدو ذلك جليا على الخصوص فى تماثيل تحتمس الثالث الذى أبدع المثالون فى نحت ملامحه حتى لتكاد أن تنطق بما كان يملأ جوانح ذلك الملك العظيم من طموح وحيوية وعزيمة قوية • بيد أن هذه الفنون لم تلبث أن اتجهت فى أوج عصر الامبراطورية الى التعبير عن الثراء والترف ورغد العيش ، فكانت ثمارها أقرب الى النعومة والرقة والتنميق • وقد

اتضح هذا الاتجاه على الخصوص فى تماثيل أمنحتب الثالث وزوجته « تى » وحكيم عصره « أمنحتب بن حابو » ، كما ظهر فى تصوير المآدب الفخمة والحفلات الفاخرة ومناظر الطبيعة الزاخرة بالطيور والزهور والأفنان والغدران . حتى اذا نادى اخناتون بعد ذلك بدعوة التحرر والتزام الحقيقة واحترام الواقع باعتباره هو الأفضل والأكمل ، تأثرت الفنون بهذا الاتجاه ، وانطلق الفنانون - في تل العمارنة عاصمة اخناتون الجديدة - يحاكون الطبيعة محاكاة أمينة صادقة فى تصوير الأشخاص والأشياء ، متحررين من



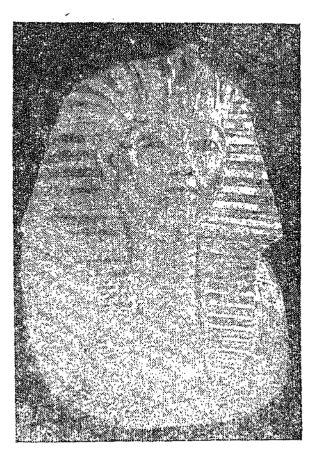
« تمثال لتحتمس الثالث فى هيئة أبى الهول »

كل القيود والتقاليد والقوالب الموروثة . وقد تطرفوا فى ذلك أول الأمر حتى صوروا فرعون ذاته نحيف الجسم ضعيف البنية تبدو عليه آثار الأمراض والهموم . بيد أنهم لم يلبثوا أن استعادوا ميلهم الى المثالية ، وعادوا يضفون على تماثيلهم ورسومهم مسحة من التناسق والجمال، وان كانوا قد اهتموا اهتماما بالغا بابراز الملامح وتسجيل ما يخالج أصحابها من مشاعر وأحاسيس. ويبدو ذلك واضحا فى تماثيل اخناتون التى تعبر أعمق تعبير عن الحكمة والتقوى والتأمل . كما يبدو فى تماثيل نفرتيتى التى تعبر عن الصفاء والوداعة والرقة ، ولاسيما تمثالها النصفى الشهير الذى يمتاز برشاقة



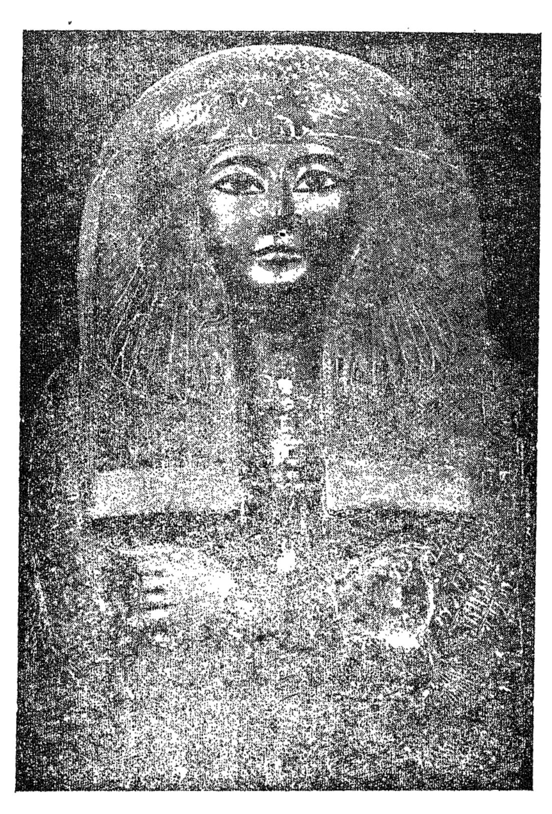
« تمثال دقيق من الخشب »
« من عصر الدولة الحديثة »

تصميمه ورقة تعبيره ودقة ملامحه ، ولا يزال موضع اعجاب العالم كله ٠ وذلك فضلا عن تماثيل أخرى لرجال ونساء من ذلك العهد تكاد أن تنطق من فرط واقعيتها وصدق تعبيرها ٠ أما الرسم فى ذلك العهد فكان أكثر انطلاقا وأوسع آفاقا ، وقد وصلت الينـا منه نماذج تموج بالحركة وتتألق بالألوان البهيجة وتمثل الطبيعة أدق وأصدق تمثيل ٠ حتى اذا انتهى عهد اخنـاتون وانتقلت



« القناع الذهبى لتوت عنخ آمون »

العاصمة مرة أخرى من تل العمارنة الى طيبة ، ظل أثر هذا الاتجاه سائدا فى الفنون فترة غير قصيرة ، وبدا ذلك الأثر واضحا فى تماثيل توت عنخ آمون وأقنعته الذهبية وتوابيته وسائر التحف التى بقيت لنا من عهده ٠ غير أنه منذ بداية عهد الأسرة التاسعة عشرة عادت الأساليب الفنية الى القواعد التى كانت متبعة قبل عهد اخناتون ، فالتزم الفنانون بروح المثالية الممتزجة بالميل



« غطاء تابوت الملكة ماكيرى »
« من ملكات الأسرة الثامنة عشرة »
« وهو من الخشب المطعم »

الى الأناقة والنعومة والرفاهية ، كما أنهم اتجهوا ولا سيما فى عهد رمسيس الثانى الى الضخامة والروعة والرهبة ، كما يتجلى فى تماثيل ذلك الملك ، وفى المعابد التى شيدها ، وفى مسطحات الجدران العظيمة التى زخرت باللوحات



« التابوت الداخلى لتوت عنخ آمون »
« وهو مطعم بالذهب والزجاج المتعدد الألوان »

الهائلة المزدحمة بصور الجموع الضخمة من الجنود وهم يتحركون فى ميادين القتال ويهاجمون الأعداء بعرباتهم وخيولهم وينقضــون عليهم بسيوفهم وحرابهم ويحاصرون حصونهم ويتسلقون صروحها ويهدمون جدرانها ، ومناظر القتلى تتراكم جثثهم ، والجرحى يعانون سكرات الموت ، والأسرى يرسفون

فى الأغلال ، والمهزومين يقدمون فروض الخضوع والطاعة لفرعون • وقد بلغت براعة النقش والتصوير فى كل هذه المناظر ذروة عالية من الدقة والاتقان وروعة الألوان وحيوية التعبير ، حتى اذا بدأت الامبراطورية المصرية فى الانهيار ومالت شمسها الى المغيب ، انتهى العصر الذهبى للفنون المصرية ، وتوقف الفنانون المصريون عن التجديد والابتكار ، وعادوا الى تقليد الأساليب السابقة على عصرهم • بيد أنهم مع ذلك تركوا لنا تراثا خالدا من أبدع الآثار • وقد ظلت فنون مصر منذ بداية تاريخها الى نهاية العصر الفرعونى محتفظة بشخصيتها المتميزة وطابعها الأصيل ، حتى فى فترات محنتها وتعثرها ، وما فتئت تستأثر بتقدير العالم جيلا بعد جيل •

٦ _ الحياة الاقتصادية

وقد تميز عهد الدولة الحديثة كما رأينا برخاء منقطع النظير ، ومن ثم ازدهرت الحياة الاقتصادية فى مصر ازدهارا لم يسبق له مثيل ، واستطاع ملوكها بما لهم من ثروة وسطوة أن يقوموا بأعظم الاصلاحات ويقيموا أضخم المشروعات لتنظيم الرى وتوسيع الرقعة الصالحة للزراعة ، فازدادت المنتجات الزراعية زيادة فاقت كل حد وفاضت على المصريين بالخير العميم •

أما الصناعة فقد بلغت ذروتها فى هذا العهد ، وقد بلغ المصريون فيه من المهارة والدقة والاتقان درجة لم يبلغها أسلافهم ولا أى شعب من الشعوب المعاصرة لهم • وقد أتقنوا على الخصوص صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد ، والصناعات الخشبية من سفن ضخمة ورياش فخمة مطعمة بالمعادن الثمينة والأحجار الكريمة والعاج والأبنوس • وصناعة الزجاج والقيشانى والورق والمنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية والحريرية وأدوات

الزينة . ولعل أروع مثال على قدرتهم الفائقة وبراعتهم المنقطعة النظير فى كل هذه الصناعات ما زخرت به مقبرة توت عنخ آمون من نفائس تذهل العقول ؛ وتحوى كل ثمين وجميل وفاخر من التوابيت والنواويس والموائد والمقاعد والأرائك والحلى وغير ذلك من التحف النادرة المغلفة كلها برقائق الذهب ، والتى تعتبر من أبدع ما صنعته يد الانسان على مر العصور .

وقد اتسع نطاق التجارة فى هذا العهد فشمل سوريا وفينيقيا وبلاد النهرين وسائر بلاد آسيا ، كما شمل جزر البحر الأبيض المتوسط وسواحل البحر الأحمر والنوبة وبلاد بونت وأواسط أفريقيا . وكانت أساطيل مصر وقوافلها التجارية لا تفتأ رائحة غادية بين وادى النيل وكل أقطار الأرض المعروفة فى ذلك العهد . كما كانت السفن الفينيقية تنقل البضائع بين مصر وقبرص وجزر بحر ايجه وتأتى بالأدوات البرونزية والأوانى المزخرفة من بلاد اليونان . ومن ثم صار وادى النيل من الدلتا الى الشلالات زاخرا بخيرات العالم ، وانتشرت المصنوعات المصرية فى قصور ملوك كنوسوس وردوس وقبرص . وقد بلغت المعاملات التجارية ذروة ازدهارها فى عهد رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين ، وكان لمعابد آمون ورع وبتاح فى عهده أساطيل تجارية تمخر عباب البحر الأبيض والبحر الأحمر حاملة دخل تلك المعابد من فينيقيا وسوريا والصومال .

بيد أن الامبراطورية المصرية لم تلبث أن انهارت ودارت عجلة الزمان على مصر ، فانقلب عزها الى بؤس ، وانقلب مجدها الى هوان ، وغزاها الغزاة من كل جنس ، فسقوها كأس العذاب ، وأذاقوا شعبها أبشع ألوان الذل والحرمان .

(تم الجزء الرابع)



الأستاذ زكي شنوده



١ ــ تاريخ مصر القديمة ، تأليف الأستاذ سليم حسن •

٢ ــ تاريخ مصر من أقدم العصور ، تأليف جيمس هنرى برستد ، ترجمة الدكتور كمال حسن •

٣ ــ تاريخ الحضارة المصرية « المجلد الأول » ، تأليف الأساتذة محمد شفيق غربال ، ومصطفى عامر ، وسليمان حزين ، وسليم حسن ، وعبد المنعم أبو بكر ، وعبد الحميد سماحة ، وبول غليونجى ، وأحمد فخرى ، ونجيب ميخائيل ، ومحرم كمال ، وجمال الدين مختار ، وعبد العزيز صالح •

٤ ــ على هامش التاريخ المصرى القديم ، تأليف الأستاذ عبد القادر حمزة •

٥ ــ لمحات من الدراسات المصرية القديمة ، تأليف الدكتور باهور لبيب •

٦ ــ جولات فى رحاب التاريخ ، تأليف الدكتور حسين فوزى •

٧ ــ ديانة قدماء المصريين ، تأليف استندرف ، ترجمة الأستاذ سليم حسن •

٨ ــ الأدب المصرى القديم ، تأليف الأستاذ سليم حسن •

٩ ــ تاريخ الطب والصيدلة ، تأليف الدكتور عبد العزيز عبد الرحمن •

١٠ــ مجموعة مجلة عين شمس ، للمرحوم اقلاديوس بك لبيب •

١١ــ مجموعة مجلة الشرق والغرب •

12) A History of Egypt, by Breasted.

13) A History of The Ancient Egyptians, by Breasted.

14) Ancient Records of Egypt, by Breasted.

15) A History of Egypt, by Petrie.

16) A short History of Egypt, by Weigall.

17) A History of Egypt, by James Baikie.

18) A History of Egypt, by S. Sharpe.

19) History of Egypt, by Lane Pool.

20) Prehistoric Egypt, by Petrie.

21) The Ancient Empires of the East, by Sayce.

22) From the Stone Age to Christianity, by Anchor.

23) The Mediterranean in the Ancient World, by J.H. Rose.

24) The Nile, by Wallis Budge.

25) The Religion of the Ancient Egyptian, by Steindorff.

26) The Religion of the Ancient Egyptian, by Wiedeman.

27) The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, by Breasted.

28) Religion of Ancient Egypt, by Sayce.

29) Religion Life in Ancient Egypt, by Petrie.

30) A Handbook of Egyptian Religion, by Erman.

31) The Wisdom of Egypt, by Oesterley.

32) Recherches sur les Origines de l'Egypte, par Morgan.

33) Histoire de la Civilisation Egyptienne, par jaquier.

34) L'Egypte sous les Pharaons, par Champollion.

35) Précis d'Histoire de l'Egypte, par Gauthier.

36) Résumé Chronologique de l'Histoire de l'Egypte, par Arther Rhone.

37) Histoire de l'Egypte, par Champollion Figeac.

38) Le Nil et la Civilisation Egyptienne, par Moret.

39) Mémeoires sur l'Egypte Ancienne et Moderne, par Bourguignon d'Anville.

40) Memoire Géographique et Historique sur l'Egypte, par Quartermère.

41) La Religion des Egyptiens, par Wild.

42) La Religion des Egyptiens, par Naville.

43) Histoire des Institutions de l'Ancienne Egypte, par Pirenne.

44) Les Peuples de l'Orient Mediterranéen, par Driton et Vandier.

45) Histoire de la Nation Egyptienne, par Hantaux.



صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مطبعة اطلس ١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة


م
٤٠